عـدنان فـرزات

ABU ABDO ALBAGL

رأس الرجـــل الكـبير

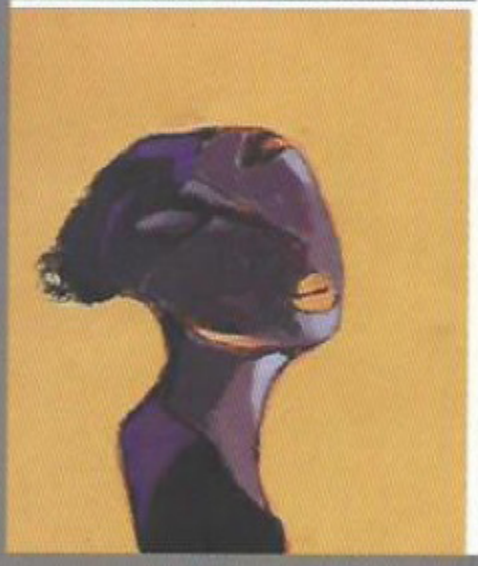

إذا أعجبك الكتاب فرجاءً حاول أن تشتري النسخ الورقية
الكتاب والناشرون العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم ضمانٌ لاستمرارهم
من أقوال الرفيق الغير مناضل أبو عبدو البغل

دار الـوفـاء

عدنـــان فـــرزات

رأس الرجـــل الكبـــير

رواية

الطبعة الأولى
2011م

مع فائق التقدير
عدنان فرزات
2011/12/25

الناشـر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: 5404480 – الإسكندرية

رقم الإيـــداع : 2011/11783

الترقيم الدولي : 978/977/327/910/2

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي

أسعد فـــرزات

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

Farzat2011@hotmail.com

الإهداء إلى

- روح أمي وهي تمضي عامها الأول في الجنة

- لبانة النقية كدعاء الأولياء في صلاة الاستسقاء

- حلب قطرة ذاكرة قديمة ما زلت وفياً لها، كأصدقاء أول العمر . .

- . . حلب عقل تاجر داهية . . بقلب درويش

أسبوع الفقراء

أوقدَ الليل نجمات قليلة في السماء، بينما توارت البقية خلف سحب أيلول. كان الجو حائراً، فهو بالكاد قد خرج من تحت رذاذ مطر خجول، ليفاجأ بشمسٍ فاترة تتمطى في الأفق بكسل. لذلك كان الجو حائراً كمراهقة كبرت فجأة.

"الحزن الشفيف الذي يحمله شهر أيلول، إلى حلب، يمنح الشعور بالحلم.. بإمكانك أن تكتشف شخصية المدينة من الفصل الأجمل فيها". ابتسمَ صهيب للعبارة؛ وهو يقلّب دفترا عتيقاً لصديقه وجاره القديم عادل، ما زال صُهيب يحتفظ بأوراقه الشاحبة كذكرى نادرة، في الغرفة الصغيرة الفقيرة التي لا يزال حتى الآن يستأجرها منذ عشرين عاما.

أطل صهيب من النافذة إلى شارع "بستان الزهرة"، هذا الشارع الذي يحتفظ باسم لا يشبهه الآن؛ فهو معدني قاسي الملامح، تختلط فيه حركة السيارات مع هرولة الغادين إلى منازلهم سيرا على الأحلام قبل الأقدام، ومع أصوات الباعة ورجاءات المتسولين .. نظرات الجيران هنا معايدة لا يهمها

ABOOD BAGHDAD

مَن أنتَ، فالمنازل هنا يستأجرها كثيرون، وقد يتبدلون عدة مرات في العام الواحد.

الغرفة التي بدأ فيها صهيب حياته، صغيرة ومتواضعة جدا، وقد اقتُطعت من غرفة كبيرة، لذلك فهي ذات شكل مستطيل. وفي المنزل نفسه يوجد أربع غرف وحمامان مشتركان ومطبخ واحد. والغرف هذه تؤجرها صاحبة المنزل العجوز؛ للطلاب والعساكر والباعة الموسميين القادمين من القرى لبيع منتجاتهم الزراعية.

الأحجار هنا تلتصق ببعضها في حنوٍ دافئ وكأنها تعوض عن تباعد البشر، وحبال الغسيل المعدنية على الشرفات، تستخدمها العصافير والسنونو الذي يتوقف فوقها لينفض ريشه من مطر لا ينقطع عن المدينة.

ما زال صهيب يزور غرفته هذه، ويقيم فيها لمدة أسبوع خلال شهر أيلول من كل عام. إنه يفعل ذلك حتى بعد أن أصبح أحد أهم أثرياء حلب، تاركا قصره الفاره لسبعة أيام في حيٍ يدعى"الشهباء"؛ ويقع قبالة المدينة الجامعية. قبل عشرين عاماً، كان صهيب مدقعاً ، لا شيء يملأ جيوبه سوى قبضة يده التي

يدسها دائماً، إما طلباً للدفء، أو على سبيل العادة التي اتخذها وهو يمشي.. لكنه اليوم هو واحد من أهم أعيان المدينة، كلمته في البلد مثل سند التمليك في السجل العقاري.. وطلباته قرار.

موعد زيارته لغرفته القديمة؛ يحل في أيلول من كل عام، وسبب اختياره لهذا الشهر، أنه كان فاصلاً بين انتقال صهيب من عالم الفقراء إلى دنيا الأثرياء. قال له صديقه عادل ذات يوم ممازحاً: "إن ما تقوم به في أسبوع الفقراء هو عملية تبييض أفعال"..

كان صهيب قد استأجر الغرفة قبل عشرين عاماً عندما التحق بالجامعة، وهي بالكاد تتسع لسرير واحد وقد استُبدلت إحدى قوائمه بحجر، وتوجد قبالة السرير خزانة بابها الأوسط مخلوع، أسند إلى جانبها، وقد حاول تركيبه، لكن الثقوب كانت قد توسعت؛ ولم تعد المسامير تستقر فيها. لذلك ظلت الملابس معلقة كما لو أنها في العراء. ولهذا الباب المخلوع ميزة مفيدة اكتشفها صهيب لاحقا، بل أصبح موقناً بأن الساكنين قبله، هم الذين كانوا يخلعون الباب عن قصد، فالمسافة التي بين السرير والخزانة ضيقة جدا، لدرجة أن رأس صهيب كان يرتطم بالثياب

المعلقة كلما نهض بلا وعي من النوم. ولو أن الباب كان في محله لأصبح رأسه كتضاريس عشوائية. وهناك طاولة صغيرة أخرى بجانب السرير، تستطيع أن ترى من تحتها الأرض المبلطة بشكل رديء. وقرب النافذة توجد طاولة خشبية قديمة بلا غطاء، تآكل خشبها، وأصبحت أشواكه ناتئة لطالما وخزت صهيبا، حتى أصبح يحفظ أماكنها وهو مغمض العينين.

حين أسند هذه المرة مرفقيه إلى الطاولة الخشبية، نسي أماكن النتوءات الحادة، فوخزته شوكة جعلته يطلق صرخة خفية، ثم ما لبث أن تجاوزها، وهو يستل بطاقته البنكية من محفظته متأملاً إياها بابتسامة المنتصر على الفقر.. لكن ما لبثت نشوة النصر أن تلاشت وهو يردد بصوت شبه مسموع: "نصر غير مشرف"..

مفارقة غير مألوفة أن يوجد الآن في داخل هذه الغرفة المحتضرة عمرانيا، رجل من أهم أثرياء المدينة. الأمر أشبه بساعة ألماس حقيقي في يد زاهد..إنك لن تصدق أبدا أنه حجر ألماس.

بعد ثرائه، وضع صهيب لنفسه برنامجاً خاصاً، أطلق عليه اسم "أسبوع الفقراء"، ولم يُطلع عليه إلا قلة من الأصدقاء المقربين جدا،ومنهم عادل. وفي أسبوع الفقراء هذا، كان صهيب يقوم بعدة أشياء، منها أنه يعود إلى غرفته القديمة، للعيش أسبوعاً كاملاً، بالمستوى المادي البسيط ذاته الذي كان يعيشه قبل عشرين عاما..ومنها أنه يقوم على مدى الأسبوع بتوزيع المال على الفقراء بنفسه، يذهب إليهم في أماكن سكنهم، ويفتش عنهم في الحافلات والأسواق، مرتدياً ثياباً عادية لا توحي بأنه صهيب المرديخي، رجل الاقتصاد الأقوى في المدينة، لاعتقاده بأنه في عمله هذا يكفر عن ثروته غير المشروعة، كما أنه يفعل ذلك على سبيل التلذذ بنكهة الفوز في معركة الحياة التي كان فيها هو المحارب والشاهد على الهزيمة التي ألحقها بالفقر. كان يقول لعادل بلهجة التشفي عن الفقر الذي هزمه:" رأيته بعيني وهو يجر خلفه رايته المرقعة وخبزه اليابس".

يمقت صهيب أن يتفوق عليه أحد حتى نفسه، لذلك كان يروضها أيضاً بهذا الأسبوع كلما شعرت بالزهو. شخصيته صنعها بدقة وحذر؛ كمن ينحت عين تمثال في حجر نفيس.

عندما علمت صاحبة البيت العجوز بثرائه، طلبت منه إيجاراً مضاعفاً فرفض، لم يكن صهيب شحيح اليد، لكنه مع هذه الغرفة تحديداً، يريد أن يُعامَل كأي مستأجر فقير. وقتها أخرج لها قفطاناً مطرزاً من حقيبته، كان أحضره معه من رحلته الأخيرة إلى فاس في المغرب، وقال مداعباً: "هذه القطعة بأربعة أضعاف إيجار خمّ الدجاج هذا".

خلال "أسبوع الفقراء" ، كان صهيب ينغمس تماما بحياته الأولى،فيخلع ثيابه المترفة، ويرتدي بنطال جينز رخيصاً، وقميصاً فاقع اللون. لم يكن ذوقه في الهندام رفيعا قبل أن يصبح ثريا. ولكن فيما بعد أصبح صاحب المحل هو الذي يطبّق له الألوان. كثيرة هي الأعباء التي يقوم بها الآخرون نيابة عنا إن أصبحنا أثرياء..ولكن ما ندري ما العبارات التي يقولونها في سرهم عنا!.. قد تشي عيونهم بها أحيانا. كان أيضا خلال هذا الأسبوع يستقل الحافلة العامة، ويجلس في مطاعم البسطاء، ويقتصر طعامه على وجبتين.

قبل بداية "أسبوع الفقراء" بيوم، يتوجه صهيب إلى البنك، ليسحب مبلغا كبيرا ثم يجزئه إلى فئتين، فئة ذات الخمسمائة ليرة، وفئة ذات المائة ليرة. فيوزع الفئة الأولى في المستشفيات، على الذين أقعدهم المرض عن العمل، أما الفئة الثانية، فيوزعها على المعوزين العابرين الذين يصادفهم أثناء ركوبه في الحافلة العامة. ينظر في عيون الركاب، يعرف المحتاجين من ياقات قمصانهم، الفقر، يترك آثاره على صاحبه.

حدسُه لا يخطئهم، كان يوما ما مثلهم، موشوماً بالشحوب .. وربما أكثر.. ابتسم وهو يرى عجوزا أعطاه قطعة نقود فقربها من عينه اليسرى حتى كادت تلتصق بها، ليتأكد من قيمتها.

بعض الذين يصادفهم في الطريق أو في الحافلات، وهو في شكله الجديد، يراودهم الشك بأنهم يعرفون هذا الوجه، لكنهم يطردون الفكرة من أذهانهم، غير مصدقين، ويتمتمون في سرهم: "يخلق من الشبه أربعين".

كان صهيب قد سمع عن رجل فرنسي يدعى جاك، يقوم بمثل ذلك، لكنه لم يتأثر به بقدر ما تأثر بالحاج أحمد، هذا الرجل

الحلبي الذي بدأ حياته عاملاً في مطعم، ثم أصبح يمتلك تجارة واسعة لفساتين الأعراس، عندئذ اشترى سيارة وراح يملأها كل يوم بشتى أصناف المؤونة، ثم يتوجه بها عقب صلاة الفجر ليوزعها في الأحياء الفقيرة.

****

أسبوع الفقراء يبدأ غدا في الصباح الباكر، لذلك فعلى صهيب أن يأتي ليلاً في وقت متأخر جداً إلى الغرفة كي لا يراه أحد، ليبيت ليلة السبت في الغرفة، حتى إذا أطل الفجر والظلام لا يزال فارشاً عباءته الليلكية .. تسلل مرتدياً الثياب التي كان يلبسها في أول حياته

كانت الغرفة محاصرة بالعتمة. مد صهيب يده متحسساً مفتاح الضوء، فشعر بدغدغة كهرباء خفيفة، وحين انتشر الضوء، اكتشف أن الأسلاك كانت منسلخة عن جلدها.

رائحة الرطوبة تجثم في المكان كهواء بحري مشحون برائحة السمك، وقد تسببت الرطوبة؛ بظهور فقاعات مهترئة في الطلاء الأصفر للجدران. أما الجدار الملاصق للحمام،

فقد انقشع الطلاء عنه بشكل كامل؛ وتكدس على شـــكل رقـــائق فوق الأرض.

يتدلى مصباح شحيح من منتصف السقف؛ يحمله ســـلك تكدّس حوله رتل من الذباب. كانت صاحبة المنزل تحظر عليهم وضع أدوات كهربائية؛ بما فيها المدفأة الكهربائية، وسخان المياه وحددت لهم قوة المصباح بمائة فولت فقط.

ثمة فراشة حامت في الغرفة حين أشعل صهيب الضوء. يبدو أنها تسللت من شقوق واسعة في باب الشرفة، ولم تعد قادرة على الخروج. ورطتُها تشبه ورطة صهيب مع الثروة التي دخل إليها ولم يعد يعرف كيف يخرج من هيمنتها؛ صارت الفراشـــة تدور حول نفسها بفزع، وترتطم بزجاج النافذة محاولة الخروج.. أوهمتها شفافية الزجاج بفضاء موعود..لكن ليس كل ما يـــشف، وراءه فضاء .. (حدّث صهيب نفسه وهو يقترب مـــن النافـــذة ليفتحها، متيحاً للفراشة أن تنجو، والتي مـــا أن أصـــبحت فـــي الخارج حتى ضاعفت من قوة طيرانها..الخلاص يحتاج منـــا أن نساعد أنفسنا أيضا، لا أن نكتفي بأن يفتح لنا الآخرون النوافذ).

خلع بدلته البنية من ماركة "أرماني"، وحرر عنقه من الربطة الأرجوانية المتدلية بأناقة فوقَ قميصه الأزرق، كان يفعل كل ذلك برتمٍ هادئ وحزين، كأنه يدفن كتاباً ممنوعا قبيل حملة تفتيش. ثم ارتدى بنطال جينز لونه باهت، ولبس كنزة زرقاء من الصوف، وفيها خط عند الصدر بعرض أربعة سنتمترات تتدرج الوانه من الكحلي الغامق إلى الأفتح، كانت جارته مارين قد حاكتها له قبل سنوات، ياقتها منخفضة، مما يتيح له ارتداء قميص تحتها فيخرج قبته على الجانبين، مثل أذني جَدي صغير.

امتزجت رائحة الرطوبة العالقة بالوسادة بعطر "غوتشي" الذي تحرر من تحت بدلته، حين وضعها على مسند المقعد الوحيد في الغرفة، واستلقى على ظهره خائر القوى، كأنه يستريح من معركة التخفي التي بدأت منذ أن أوصله سائقه إلى باب العمارة، ولغاية وصوله إلى الغرفة، مروراً بالسلم الحجري المتكسر؛ مستفيداً من كون البناية تكتظ بالطلبة والعساكر والباعة الموسميين، وعدد ساكنيها كبير جداً قياساً إلى مساحتها،فبعض الغرف يقطن فيها ثلاثة أشخاص أحيانا.

راح يراقب الفراشة التي انطلقت عبر النافذة، وهي تنضم إلى سرب من الفراشات كان يحوم حول مصباح الشارع الشحيح، والذي طالما درس صهيب تحت ضوئه عندما كانت صاحبة المنزل تقطع الكهرباء عن الغرفة حين كان يتأخر عن الدفع.

وضع صهيب يديه وراء رأسه ثم رجع إلى الوراء فتحرك الحجر الذي يسند السرير بدلاً من إحدى قوائمه، وأصدرت النوابض صريراً يألفه. ترك جسده ينزلق إلى أسفل متحاشياً ضوء مصباح الشارع الذي كان يصله من النافذة، لا ستارة تحجبه.

لم يتبق سوى خمس ساعات على أذان الفجر؛ أمضاها صهيب بين نائم ومستيقظ، وعندما سمع صوت الأذان، فتح عينيه ليجد نفسه في الوضعية نفسها التي استلقى عليها. أحس بتتميل في ذراعيه، فنهض جاحظاً عينيه متلفتاً حوله كأنه يكتشف المكان لأول مرة. أكمل استيقاظه ببطء، ونظر إلى ثيابه ليتأكد من أنه ارتدى الملابس القديمة، لكنه وحين وصل إلى الباب انتبه إلى أنه ما زال ينتعل حذاءه الجديد، فعاد أدراجه ليستبدله بالحذاء

البني القديم الذي تآكل أسفله، واهترأت خيوطه..نظر إلى الفرق بين الحذاءين، تلك مسافة عمرها عشرون عاماً.. أنّب صهيب نفسه وهو يتذكر حجم الثروة الفاسدة التي تفصل بين النعلين .. ميزته أنه يعترف بقرارة نفسه – في لحظات الصفاء- بأن ثروته فاسدة. لذلك كلما استفاق ضميره أعطاه مسكّنا مؤقتاً بعمله الخيري في أسبوع الفقراء هذا. لكن ضميره لم يكن سعيداً بهذه الرشوة.

كان يقنع نفسه بأن ذلك أفضل-على الأقل- من أن لا يحصل الفقراء على شيء من ثروته .. وأفضل له من أن تمضي أم صطيف، وستة من أطفالها، ليلها تصارع آلام الكلى؛ التي جعلتها تسير في هذه اللحظة متثاقلةً وهي تمسك بخصرها والألم يعتصرها وتدنو من الباب الذي كان يُطرق عند الفجر، هاتفة بما بقي لها من صوت واهن:

- "مَن بالباب"؟

لم يرد أحد، ولكنها حين اقتربت من الباب سمعت صوت خشخشة في الشق الخشبي القديم، فعادت لتصرخ مرة أخرى بما ظل من صوت منطفئ في حنجرتها:

- "مَن بالباب"؟..

لم يأتها سوى صدى ريح أيلول التي كانت تمر في الزقاق المتعرج الفقير، أسندت المرأة كفها على الباب ثم سحبت المزلاج الحديدي الذي يشبك بين دفتي الباب. كانت كلما أغلقت الباب ليلاً بالمزلاج؛ سخرت من نفسها: "على أي شيء تخافين"؟ لكنها تجيب نفسها: "هناك أيضا من يسرق حتى الفقراء".

فتحتِ المرأة الباب الخشبي الملبّس بصفيحة من التوتياء، فهوى على الأرض مغلفٌ أصفر سميك، وقبل أن تلتقطه مدت عنقها إلى الشارع، فلم يكن فيه سوى العائدين من صلاة الفجر، متأخرين ممن كانوا بعد الصلاة يعقدون حلقات الذكر، ويرددون وِرداً طويلاً يتألف من آيات وتسابيح.

يعرف صهيب الحي وساكنيه منذ أن بدأ رحلته مع أسبوع الفقراء، لذلك توجه إلى منزل في آخر الزقاق، يعيش فيه "حمو" مع زوجته التي تكبره بتسعة أعوام وهو الآن رجل معاق، وقد كان الرجل في شبابه عداءً يحرز المراكز الأولى في السباقات التي تحصل بين أبناء الحي.

ذات تحدٍ كبير، تراهن "حمو" مع أحد أقرانه بأن ينـــزلا من قمة القلعة إلى أسفل المنحدر في الجهة الخلفية. كان عليهمـــا أن يدخلا من باب القلعة الرئيسي، ثم يتوجها إلى الجهة الخلفيـــة بجانب مسجد القلعة، ويقفزا من السور ليصبحا على رأس التلة. عندها بدت الأشياء فـــي الأســـفل بحجـــم أعـــواد التقـــاب .. وكأنما السفح بلا قرار.

كان "حمو" جريئاً جداً، ولم يسبق أن فاز أحـــد عليـــه، لكن في هذه المرة، فاجأه منافسه بأنـــه يـــسبقه فـــي النـــزول، استحث "حمو" عناده، وازداد إصرارا أكثر، حين عـــرف قبـــل صعوده إلى القلعة بأن روز، الفتاة التـــي يحبهـــا واقفـــة بـــين المتفرجين. الطاقة التي تبثها الحبيبة فينا تختلف عن أي طاقـــة تبثها أي امرأة أخرى، لأن الأخرى هذه تكون طاقتها مبـــصرة عادة. لذلك كان بالنسبة لـــ"حمو" أي احتمال للهزيمة يعني خدشاً في جدار حبه لها.

انقسم الجمهور إلى فريقين، واحد عند نقطة البداية مـــن داخل القلعة، والثاني عند نقطة الوصول في الأسفل. سَرَّعَ "حمو" خطواته، فتقلصت المسافة مع منافسه، وظلا متساويين إلـــى أن

وصلا إلى منتصف الهضبة، والتي بدأت تتحدب كظهر حوت أملس، ضرب حمو فخذيه كما لو كان يسوط حصاناً مخيباً للآمال، ثم انطلقت قدماه بسرعة غير متوازنة، فانحشرت مقدمة قدمه في أخدود كانت عشبة قد نبتت فيه، ففقد السيطرة على نفسه، وتلاطمت رجلاه وهوى جسده مثل كرة صوف تدحرجت من قمة جبل.. صار الجسد يهوي مثل دميةٍ في خدعة فيلمٍ سينمائي .. الشجاعة التي بلا تخطيط، تقتل المبارز قبل أن يصل سيف الخصم إليه..

عند سفح التلة كان جسد "حمو" رخوا كقنديل بحر سممه التلوث في عمق المحيط .. ليس في صدره سوى بضعة أنفاس ترفع بصعوبة القفص الصدري وتهبط به بحركة غير منتظمة. بعدئذ قرر الأطباء أن "حمو" أصبح مقعداً، واقترح عليه مختار الحي أن يزوجه امرأة تقوم على شؤونه، وإن كانت أكبر منه سناً، كان حمو بين الليلة والأخرى يستفيق على كابوس يرى فيه "روز" وهي تضع يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ وكان يرى نفسه بنصف جسد يزحف من فوق القلعة إلى أسفلها.

يعرف صهيب أن هؤلاء الناس تمنعهم عزة أنفسهم من السؤال، وبأنهم يأبون النزول إلى الشارع ليعرضوا فاقتهم على أرصفة الاستعطاف، لذلك يقوم هو بزيارتهم .. ويطلع على حكاياتهم عن طريق الشيخ عبادي، وهو رجل مسنّ وقور، عرّفه عليه صديقه عادل، في مسجد السلطانية القريب من القلعة حين كانا طالبين في السنة الأخيرة في الجامعة.

كان على صهيب أن يقفز فوق مجموعة من الحفر والأخاديد المائية الآسنة التي تملأ الزقاق القديم، ومن فوق المجاري المكشوفة، والأرض المليئة بشقوق ملأتها مياه خضراء متعفنة قادمة من حمامات البيوت، لتستقر في حفر عشوائية.

تعثرت أمام صهيب طفلةٌ لا يتجاوز عمرها السنوات الخمس، شعرها مصبوغ بالحناء الحمراء، وقد وضع لها أهلها في ثقبي أذنيها خيوطاً سميكة بدلاً من الأقراط التي لا يملكون ثمنها، كي لا يُسد الثقبان. أسرع صهيب ينتشل الفتاة من الخندق الصغير الذي وقعت فيه، كان الخندق فارغاً ولا حتى من كيس أو منديل ورقي.. في هذا المكان البائس ليس لديهم ما يلقونه في الشارع..

الدموع التي سالت من عيني الطفلة، شقت طريقها وسط طبقة رقيقة من التراب العالق على الخدين. حمل صهيب الطفلة فالتقت عيناها المذعورتان بعينيه الباحثتين عن كفارة في نظرات الفقراء. حدقت فيه، وقلبت شفتيها استعداداً لنوبة بكـــاء جديـــدة. سألها بلطف وهو يعيدها إلى الأرض:

- "أين بيتك"؟

اكتفت بإشارة من يدها اليمنى نحو بيتها، بينما وضـــعت اليسرى في فمها ،كان البيت الذي أشارت اليه ذا بـــاب حديـــدي وغير مطلي بالدهان وقد وغطاه الصدأ. وهو مرتفع قليلاً عـــن الأرض بما يسمح لدجاجات المنزل أن تمر من تحتـــه، وكـــذلك فعلت قطة كان لونها في ما مضى أبيض، قبل أن يصبح وبرها رمادياً داكنا، وكأنها مرت في مدخنة.

بحث صهيب عن جرس فلم يجد .. طرق الباب بقبضته، ولم يسمع جواباً، فأخرج قطعة نقود معدنية من جيبه وراح ينقر بها الباب نقرات متتالية، ثم أعاد النقر بقوة أكبر، فانفتحت الدفة اليمنى تحت وطء الطرق. سمع صوتَ رجلٍ منهك، من الداخل يستفسر عن الطارق. فأجابه صهيب بالكلمة التقليدية في مثل هذه

الحالات : "أنا".. الغريب أن يصر الناس على هذا الجواب رغم أنه مبهم.

أطل رجل غاضب من وراء الباب، له ذقن نابتة، أسنانه سوداء بفعل التبغ، وفي يده خاتم حديد يكاد ينغرس في اللحم من ضيقه، وفي معصمه ساعة لا تشير إلى التوقيت الصحيح، ويرتدي بنطالاً رياضياً أحمر قديما له خطان أبيضان على الجانبين، حصل عليه من لاعب في نادي الاتحاد، حين جاء ليصلح سيارته في محل الميكانيك الذي كان يعمل به الرجل، قبل أن يُطرد من عمله لكثرة سُكره.

كان صوت سعال زوجته الخشن قد وصل إليه وهو في الطريق لفتح الباب، فرد عليها، بلهجة حلبية قاسية: "وَبا يقشك". ثم أكمل طريقه إلى الباب نحو الباب مستفسراً بعصبية عن الطارق، وحين وقعت عيناه على صهيب اشتعلت عيناه كجذوة لفحها هواء:

"ماذا تريد إذا كنت من رجال البلدية، فلن نزيل قن الدجاج..ما تريدون منا بعد؟..ليس لدينا ما نأكله سوى بيض هذه الدجاجات..إنها أرفق بنا من الحكومة".

ابتعدت الطفلة عن صهيب خائفة، والتحقت عنوة بالرجل العصبي الذي سحبها بقوة من يدها التي كانت في فمها، صارخاً:

- "وأنتِ كيف تلبسين حذاء أخيك؟..لقد تغيب عن المدرسة بسببك".

ثم لاحت منه نظرة عاجلة إلى الحذاء الذي ساءت حالته بسبب وقوع الطفلة في الخندق، فازداد حنقاً، ورفع يده الهزيلة ليضرب الطفلة، لكن العبارة التي قالها صهيب جمَّدت يده، عرض صهيب عليه أن يشتري للولد حذاء بديلا، فرد الرجل وهو لا يزال غاضبا:

- "ماذا قلت يا أخ..لم أسمعك جيداً"

كرر صهيب الجملة بهدوء اكثر:

- "سوف أشتري حذاءً جديداً لابنك، ولابنتك أيضا".

نظر الرجل إليه نظرة تشكيك، متفحصاً الملابس التي يرتديها، ثم رد باستهزاء:

- "أنت"؟!

انتبه صهيب إلى أن أمره قد يفتضح فأجاب بتحايل:

- "لا طبعا لست انا .. بل عن طريق شخص ثري أنا أعمل عنده".

اقتنع الرجل على مضض، لكنه في النهاية أسكتَ نفسه بحقيقة أن ما يهمه في الأمر هو حصوله على المال، أياً كان مصدره، فليّن من لهجته. ويبدو أحس بأن أمامه فريسة وعليه اختيار الزاوية الصحيحة للانقضاض، فوجد أن خير وسيلة هي أن يستضيفه. وما إن وافق صهيب حتى أدار الرجل رأسه نحو الداخل صارخاً: "طريق.. افسحوا لنا الطرق يا حريم".

همّ صهيب بالدخول، لكن الطفلة زاحمته فانحشر بدفة الباب قليلاً، ثم نزل فوق ثلاث لبِنَات رُصِفت فوق بعضها على شكل درج، ولأنها غير مثبتة جيدا، بدا صهيب وهو يتأرجح فوقها، كبهلوان يسعى للحفاظ على توازنه.

سار الرجل أمامه يقوده إلى غرفة في زاوية المنزل الذي بدا أنه يحتوي غرفتين، واحدة على اليمين، وهي التي تجاوزاها، والثانية في صدر الدار. خلع الرجل نعليه عند العتبة

الخارجية للغرفة، فقلده صهيب؛ ثم دخلا الغرفة التي فُرشت أرضها بثلاث قطع من الإسفنج، وتحتها حصيرة من النايلون الملون .. الجدران العارية إلا من طبقة رصاصية من الاسمنت، معلق عليها جَراب من القماش يوضع عادة بداخله مصحف وفي أعلى الجدار ساعة حائط بلاستيكية مكسورة من طرفها، ومع ذلك فهي تعمل. كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحاً.

سحب الرجل سيجارة من النوع الرخيص من ماركة "حمراء طويلة"، وقبل أن يعيد العلبة إلى الأرض، قدم سيجارة إلى ضيفه، الذي اعتذر بحجة عدم التدخين، وقد تاقت نفسه إلى السيجار الكوبي.

ريثما أشعل الرجل سيجارته، اختلس صهيب النظر الى صورة عُلِّقت عشوائياً بخيط يتدلى من مسمار مثبت عند حافة التقاء السقف بالجدار، كانت الصورة بالأسود الأبيض، ويبدو ان الماء تسرب إليها فأتلف جزءاً كبيراً منها، ولم يعد يظهر منها إلا جانبٌ من وجه رجل بشاربين عريضين معقوفين إلى الأعلى، وحزام طلقات رصاص يلتف من الكتف حول الصدر بشكل مائل.

- "هذا أبي"..

قال الرجل فجأة وكأنه يجيب عن علامات الاستفهام التي ارتسمت على جبين صهيب وعينيه..

ثم تابع بحسرة:

- "استشهد في معارك مع المهربين. فقد كان يعمل في الشرطة".

اعتدل الرجل فجأة في جلسته، كمن تذكّر أمراً مفاجئـــاً، وظل ملتفتاً إلى صهيب:

- "صحيح..أنت ماذا تعمل"؟

كان السؤال مباغتا ومربكاً، حاول صهيب التخلص منه بطلب، كأس ماء،لكن الرجل لبى طلبه على عجل بـــأن نـــادى زوجته، آمراً إياها بإحضار الماء، ثم حدق ملياً في وجه صهيب بعلامة انتظار الإجابة.

كان صهيب خلال هذه الثواني قد استجمع كذبةً عابرة:

- "أعمل عند رجل ثري صاحب استثمارات كبيرة .. ألم أخبرك عند الباب بأن هذا الرجل سوف يتكفل بنفقات تعليم ابنك".

رد صهيب بنرفزة وكدر:

- "تقول استثمارات؟..أعوذ بالله..أخشى أنك تقصد مأمون الماوردي"؟

كان مأمون الماوردي تاجراً كبيراً ذاع صيته باستثمار الأموال، وتهافت عليه الناس البسطاء الحالمون بعيشة مطمئنة؛ لتوظيف أموالهم عنده، وأغرتهم الفكرة أكثر حين وزع عليهم مأمون في الأشهر الأولى أرباحا هائلة، ثم فجأة انطفأت أحلامهم باختفاء الرجل..

توقفت دمعةٌ لجزءٍ من الثانية على أهداب الرجل، ثم سقطت متدحرجة لتختفي في شاربيه الكثيفين .. كان بين الوقت والآخر ينفض رماد السيجارة بباطن كفه، ثم نهض ليلقي بعقب السيجارة خارج الغرفة، ونفخ على الرماد الذي في كفه. عندئذ هرولت دجاجة نحيلة نحو عقب السجائر ظنا منها أنه طعامٌ، لكن ما لبثت أن خاب أملها فعادت محبطة. كان كلاهما يراقب المشهد، فقال الرجل مشيراً الى خيبة الدجاجة:

- "مثل هذا حصل معنا"

ثم أكمل متنهداً:

- "بعد استشهاد والدي، جمعنا التعويض الذي أعطتنا إياه الحكومة، مع ثمن دونم أرض كنا نملكه في "سراقب"، وباعت زوجتي الإسورة الوحيدة التي تملكها، لنسلم ما جمعناه إلى مأمون الماوردي .. في الشهر الأول أعطانا حوالي عشرة آلاف وسبعمائة وثلاثين ليرة كأرباح، ولكننا لم نأخذها، بل طلبنا منه أن يضيفها إلى وديعتنا عنده .. وأنت أكيد تعرف بقية الحكاية، فمن غير المعقول أن لا تكون سمعت بهروب مأمون بأموالنا لقد ضجت الدنيا بالخبر".

لم يجب صهيب، إلا بهزة رأس خفيفة، كان يفكر في أوجه الشبه التي بينه وبين مأمون: "هذا فاسد باع الناس الأحياء، وأنا بعت الأموات .. هو تاجَر بالحاضر، وأنا تاجرت بالماضي"..

شروده لفت أنظار مضيفه:

- "أراك شارداً..هل أنت أيضا طارت أموالك عنده؟.

حرّك صهيب دفة الحوار باتجاه آخر:

- "في أي مرحلة دراسية ابنك"؟

قبل أن يجيب الرجل، دخلت امرأة في العقد الثالث من عمرها إلى الغرفة حاملة إبريق شاي بيد، والكؤوس فوق بعضها باليد الأخرى، قرّب الرجل منضدة خشب مستديرة لتضع المرأة الإبريق فوقها، وهي تلقي تحية خجولة دون أن تنظر إلى صهيب. سألها زوجها عن السكّر، فأجابت أنها ذوبته مع الشاي، فاستشاط غضباً وهو يسكب الشاي رافعاً الإبريق إلى الأعلى، مصدراً صوت قرقرة:

- **"يا أخي هذه الزوجة عنيدة لا تسمع الكلام، نبهتها عدة مرات على أن لا تذيب السكر بالشاي، لكنها لا تستجيب .. (ثم راح يضرب الجدار بيده الأخرى، ويتابع) :"هذا الجدار يفهم وهي لا تفهم".**

ظلت الكلمات تسوط المرأة وهي تخرج مسرعة من الغرفة متعثرةً بخجلها، بينما اقترب صبي كان يلهو في فناء الدار من نافذة الغرفة، ثم وقف فوق سطل دهان قديم أسفلها؛ وصعد فوقه مستطلعا الضيف بفضول، فهو لم ير ضيفاً عندهم، آخر مرة طرقت فيها شرطة البلدية الباب، لتزيل قن الدجاج.

انتبه الأب إلى وجود الطفل، فنهره بعصبية كي ينـــزل، ثم قال لصهيب وهو يناوله كأس الشايَ:

- "حاولنا بشتى الوسائل أن نسترد أموالنا من مـــأمون..لكـــن دون جدوى..يقولون أنه مدعوم".

قالها ثم جال ببصره في المنزل حزيناً:

- "هذا آخر ما تبقى لي ولزوجتي ولأمي ولثلاثة أبناء".

غمرت موجة حزن عابرة قلب صـــهيب، أحـــس كمـــا لو أن مشاعره تغرق في بئر ممتلئة بالحنظل. كمسافر اســـتفاق فجأة بعد أن اهتزت الحافلة، قال الرجل لصهيب:

- "ولكنك لم تخبرني،ما الذي جاء بك إلى حيّنا"؟

تمنى صهيب لو أنه يتمكن هذه المرة أيضا من النجاة من هذا السؤال، كما في الأسئلة السابقة، فتذكر أن ثمة محطة وقـــود في المنطقة:

- "كنت أبحث عن (كازية) اسمها (كازيةالخياط)، لأن معلمـــي يريد أن يتفق معهم على توريد المازوت لمصنعه، ولكننـــي أضعت الطريق".

رد الرجل بلهفةٍ أصيلة وهو يضرب صدره براحة يده:

- **"ولا يهمك أنا أعرف مكانها، وأعرف أحد أصحابها اسمه أبو كمال. سوف أوصلك إلى هناك".**

مطب آخر يضعه الرجل عن غير قصد في طريق صهيب الذي بادر:

- **"لا تتعب نفسك فقط دُلني عليها وأنت هنا؛ وأنا أعرف الوصول إليها".**

(قال صهيب للرجل وهو يودعه عند الباب،بينما وقفت الطفلة عند زاوية جدار المطبخ تنتظر وعاءً يفور على النار، وتفوح منه رائحة البصل).

بعد أن سار عدة خطوات؛ توقف صهيب فجأة ثم التفت إلى الرجل وخاطبه بحنان:

"مع بداية كل عام دراسي، سيأتيك شخص من طرف معلمي الذي أعمل عنده، يحمل إليك مصاريف العام الدراسي، لكن بشرط أن يستمر ابنك في الدراسة".

****

حلب مدينة تعطي كل شيء حقه، مثل امرأة ملتزمة لكنها تجيد التبرج لزوجها في الليل كما يجب..حلب مزيج من كل شيء، تماما كما لو ملأت جيبك بحبات من ألوان مختلفة، وفي كل مرة تسحب يدك من جيبك، تخرج بحبة ذات لون جديد .. لذلك لم تستطع التيارات المتشددة أن تتمدد في شرائح واسعة حين نشطت في الثمانينات، فلجأت إلى العنف بما يشبه الانتحار. أحد أصدقاء صهيب حكى له كيف حاول المتشددون أن يغتالوا رئيس تحرير الصحيفة الوحيدة في البلد، يومها صعدت مجموعة من المتشددين إلى مبنى الصحيفة، التي تقع في الدور الأول، ولكنهم على ما يبدو لم يكونوا يعرفون شكل رئيس التحرير كما يجب، ولا حتى غرفته، لذلك اقتحموا أول غرفة صادفتهم، وكان يجلس هو فيها، فسألوه عن رئيس التحرير، فتماسك الرجل بما أوتي من ثبات، ثم أشار إليهم بأنه في الغرفة التالية، وما أن غادروا الغرفة، حتى قفز إلى حافة النافذة، وهي عريضة بما يكفي لموطئ قدم، كان يعتزم الوصول إلى الغرفة التالية، ولكنه وقع في مأزق أصعب، فقد كان رجال الأمن وصلوا لحظتها، وتمترسوا في الشارع أسفل البناء، وحين رأوه هكذا

ظنوا أنه من المجموعة المسلحة، فكادوا يطلقون عليه النار لولا أنه صرخ فيهم بأنه رئيس التحرير. يومها تم إنقاذه، وفشلت عملية الاغتيال، إلا أن مشهد الرجل وهو محاصر بين ناري الجماعات المتشددة ورجال الأمن، كانت تمثل الحالة نفسها التي يعيشها الناس آنذاك. الرداء الوحيد الواقي من الرصاص، هو رداء الحكمة .. ولكن أحدا لم يكن يرغب في ارتدائه حينئذ.

سار صهيب فوق مساحات ترابية، تجاوره قطعان متفرقة من الماعز التي تمشي واثقة باتجاه محدد دون راعٍ. بدت وكأنها تعرف طريقها لوحدها. حين وصل صهيب إلى الشارع الرئيسي انضم إلى مجموعة من الناس كانوا ينتظرون الحافلة عند عمود حديدي لا مظلة له.كانت الشمس قد بدأت تزحف بفتور إلى منتصف السماء، ووجوه الواقفين على المحطة، تشير إلى أن أصحابها أمضوا وقتا طويلا في الانتظار، الترقب دائماً يحفر علامات قاسية في الوجوه.

اتكأت فتاة حبلى في مقتبل العمر على كتف زوجها الذي بدا حائرا أمام آلامها، راح ينظر بعجز إلى سيارة أجرة صفراء

توقفت قليلا تبحث عن زبائن، ولكن صاحبها لم يلمح يداً تشير باتجاهه فانطلق بعصبية.

اقترب صهيب من الزوج بحذر.من الصعب أن يتفهم سكان هذه المناطق تدخلات رجل غريب بوجود امرأة، لكن صهيب مع ذلك دنا من الرجل هامساً في أذنه:

- **"هل تحتاج إلى مساعدة"؟**

كان الرجل مرتبكا وقلقا حتى بدت عيناه في تلك اللحظة أكبر من السن الذي يوحي به بقية وجهه، خصوصاً وأن مظهر صهيب بثيابه الرثة لم تكن توحي بأنه من أهل المساعدة، فنهره بنظرات يائسة:

- **"لا..لا شكرا..فقط زوجتي متعبة من الحمل"؟**

لدى صهيب خبرة في التعامل مع كرامة هؤلاء الفقراء،، لكنه أيضا خشي أن يُقدم عرضه بشكل مباشر:

- **"هل ستذهب الى طبيب معين"؟**

رد الرجل بأسى ممزوج بالقلق:

- "بل سأذهب الى مستشفى الجامعة".

كان لدى صهيب صديق طبيب، فكر أن يرسل الرجل وزوجته إليه، فانتقى طريقة تحفظ للرجل كرامته:

- "لدي أخ طبيب، ما رأيك أن أرسلك إليه فهو متخصص بالحمل والولادة ولن يتقاضى منك شيئا".

نظر الرجل إلى زوجته، وكأنه يترك الإجابة لها.. فأجابت عنها آلامها، بحركة واهنة من رأسها المغطى بملاءة سوداء.وما أن حصل صهيب على هذه الموافقة، حتى أسرع بإيقاف سيارة أجرة. التف الى نافذة السائق ليشرح له العنوان، ثم أعطاه أجره عن الذهاب والإياب وهمس له: "أرجو أن تنتظرهما حتى ينتهيا".

عاد صهيب ينتظر الحافلة .. أشعلت الشمس حزماً إضافية من أشعتها فأصبح الجو أكثر حرارة.أحس بنظرات الفضول من الواقفين تتفحصه، وهم يتابعون السيارة التي راحت تغيب عند المنعطف البعيد. أقبلت حافلة النقل الداخلي، كان صهيب آخر الصاعدين إليها فلم يحظ بمقعد. ظل واقفاً إلى أن

نزل راكب في المقعد الأول الذي وراء السائق، فألقى بجسده المتعب فوقه. تطلع السائق اليه في المرآة عدة مرات. خامره الشك بهذا الوجه المألوف، تنبه صهيب إلى أن السائق ربما عرفه، فراح ينظر الى الشباك مانحاً السائق نصف وجهه..

ملامح الوجوه تتغير وفقا لوضعيتها، لذلك يصورون وجوه السجناء من كل الاتجاهات: "وجوه السجناء"؟ عبارة هبطت فجأة على مخيلة صهيب فأرعبته، تخيل مصيراً كان من الممكن أن يواجهه في فترة من فترات حياته، لولا أن المال أعطاه حصانة، فأصبح محمياً .. المال له قوة جواز سفر دبلوماسي أحيانا.. أو.. غالباً.

ثروته غير المشروعة، بقدر ما حققت له حياة مترفة، بقدر ما زرعت في أعماقه شجرة شوك تخز ضميره باستمرار. أصبحت أمواله عبئاً عليه، حاول عدة مرات في البدايات أن يتخلص منها لكن المال أشبه بسفح تنزلق عليه ولا يمكن أن تتوقف في منتصفه.

وصلت الحافلة إلى "بستان الزهرة"، ترجل صهيب عند المحطة المحاذية لمقبرة "هنانو".. ثم سار نحو بقالة "أبو عبدو"

بخطوات مثقلة بالألم، تُكبِّل مخيلته صور البؤس التي رآهـا .. اشترى كيس خبز وعلبتين من التونة، وتوجه إلى غرفتـه. راح يصعد السلم الحجري بصعوبة، ليس فقط بسبب صور البـؤس، بل جراء آلام الروماتيزم التي تسري في نقـي العظـام كتيـار كهربائي في سلك مجرود. كان صهيب قد أصيب بهذا المـرض قبل عشرين عاما، حين أمضى عدة أشهر في أجـواء رطبـة، بقرية "تل مرديخ" وهو ينقب سراً عن الآثار.

عاد صهيب إلى غرفته منهكا، لكنـه مغمـور بـسعادة جعلت لتعبه لذةً ما. أسبوع الفقر بالنسبة له أشبه بدش ماء يفتحه على جسد ضميره فيغسله.

تذكَّر أنه قبل عقدين من الزمن كان يمشي مثـل هـذه المسافات سيراً على الأقدام، فتبسم ثم نظر إلى الـشباك الـذي نصفه زجاج ونصفه الآخر قطعـة كرتـون، أبقاهـا صـهيب عن قصد.

رغم العتمة لمح شحوبا يعلو وجهه، لم يشأ أن يتنـاول وجبة عشاء، كان قد اقتصر على وجبتين إحداها محيّـرة بـين الإفطار والغداء، والثانية عند منتصف المساء..ألقى بجسده فوق

السرير فأصدر الحديد صريراً أشبه بباب زنزانة عتيق. كاد ظهره يلامس الأرض، لم تعد النوابض الحديدية قادرة بعد هذه السنين على حمل الثمانين كيلو غراما التي يكتنزها صهيب في جسمه، ولم يكن طول السرير يكفي من الأساس لاحتواء قامته الفارعة، فكان يثني قدميه عندما يريد الاستلقاء، وهو ما فعله هذا المساء إلى أن غفا بثيابه قبل أن يغيرها، تماماً كما كان يفعل، في الماضي البعيد.. وحين أحس ليلا بالبرودة ارتدى فوقها ثياباً أخرى معوضا مدفأة غائبة عن الغرفة.. منذ عشرين دهراً من الحنين.

****

ما أن ينقضي "أسبوع الفقراء"، حتى يغلق صهيب الغرفة، ويعود إلى قصره في "الشهباء" .مودعاً الجدران بإحساس آدمي. وعند باب القصر كانت زوجته تستقبله بارتياب الذي لا يعلم شيئا: "الحمد لله على السلامة عساك وُفقت في رحلتك إلى دمشق"؟..

كان كل شيء يسير على ما يرام في حياة صهيب، إلا من ألم ظل يحز ضميره، منذ أن غدا ثرياً. حاول كثيراً التخلص منه فلم يستطع. حتى الطبيب النفساني الذي أخذ عنده سبعاً وثلاثين جلسة، عجز عن شفائه. لذلك فهو يلوي عنق مخيلته كلما فرّ حصان ذاكرته جامحاً نحو الأمس البعيد.. يحاول دائماً أن يقنع نفسه بأنه الآن ثري وكفى..

عندما يضاء قصر صهيب، يتحول إلى ما يشبه الكرة البلورية التي يضعها السحرة أمامهم .. بناء مهيب، كل حجرة فيه مزخرفة وفق تشكيل مختلف. لقد أحضر لأجل ذلك بنائين من بلاد عديدة، فالركن الشرقي للقصر، بناه مهندسون مغاربة، بينما بنى الجهة الغربية مهنيون مهرة من إيران، وأكمل الجزء الشمالي الأتراك. بينما تحول الجدار الجنوبي على يد فنانين حلبيين إلى واجهة من زجاج ملون يبدو على البعد كجدار من فسيفساء. حجارة القصر وردية اللون، وهي من الحجارة النادرة، التي لا يوجد لها مقالع كثيرة في أطراف المدينة.

تحيط بالقصر حديقة كبيرة، يقوم على خدمتها خمسة من المزارعين حدودهم الحديقة فقط، لا يتعدونها، ولا يدخلون القصر، حتى عند حلول وعد وجبات الطعام، فإن خدم المنزل يوصلونها إليهم عن طريق الباب الخلفي المؤدي الى الحديقة. وفي كل زاوية يوجد كلب للحراسة، من النوع التشارلو المخيفة. في أحد الأيام، كان صهيب يتجول في الحديقة، فاقترب منه مربي الكلاب، شاكياً له أنها كبرت كثيراً، وضاقت عليها بيوتها، حتى أصبحت الغرف التي تنام فيها لا تتسع لها.. عندئذ توقف صهيب عند حافة شلال، والتفت إلى المربي نصف التفاتة: "كنت يوما أعاني المشكلة نفسها".

صعد صهيب الدرج اللولبي المؤدي إلى الطابق العلوي، من داخل الصالة الأرضية ، متجها نحو غرفته. بدا الدرج على التوائه الانسيابي، كخصر غجرية تبذل ما في وسعها لتجعله ليناً.القصر على اتساعه لا يقطن فيه الا هو وزوجته وابنتاه اللتان لم ينجب سواهما. أحس بالفرق بين غرفته القديمة، وهذه التي استلقى فيها على أريكة موشاة بماء الذهب وقد حاول استدراج غفوة نوم ثرية بعد أسبوع من الفقر القديم.

حيادي وصامت مساء حي الشهباء الأرستقراطي.. ستارة العتمة تنزل في هذا الحي على مهل فتصبح الأشجار كما لو أنها أذرع جنيات تجوس فضاء المكان. المنازل الفارهة، شحيحة الروح، تبدو وكأن لا أناس فيها .. الشوارع خاوية على زهورها النادرة .. ما تبقى من أصوات العصافير قبل نومها، ينساب متثاقلاً بالنعاس كقلوب أتعبها حبٌ مباغت في السنوات الأخيرة من العمر.. أسيجة من نحاس لم تلمسها يد أطفال، لأن الصغار هنا لا يلهون في الشوارع.. الطرقات هنا لا يمر بها باعة السحلب، ولا الغاز، ولا البطيخ ولا المتسولون ولا شرطة البلدية، كمالا تُلصق على جدرانها النعوات.

أطل صهيب ببصره بعيدا في الأفق المعتم، فالتقت عيناه بصورته المنعكسة على زجاج النافذة .. ملامحه الحادة تضفي ألقاً على وسامته. عينان واسعتان لامعتان كأنما صنعتا من ماء ونور. لهما اخضرار الزيتون في أول نضجه. لحيته الكستنائية لم يتمكن الشيب إلا من بضع شعرات فيها، فدسها على وهن ومضى، النتوء الصغير في عظمة أنفه بالأعلى، تحديقه

المستوحش في الأشياء، جعل نظراته أقرب إلى نسر متحفز حط للتو على قمة جبل غريب يرقب الفريسة.

هذه الطريقة بالنظر وسمته منذ عشرين عاماً، حين حط على أرض حلب كطائر فقد عشه بريح عاتية، قادماً من قرية "تل مرديخ" الأثرية، في جنوب غربي حلب. التحق في أول أيامه بكلية الهندسة المدنية في الجامعة، ولكنه بعد أربعة أشهر أحس بالضجر حتى من شكل ترتيب المقاعد في قاعات المحاضرات، والمساطر الطويلة التي يحملها، وانتابه شعور بأن طموحه لن يلبيه مقعد دراسي في جامعة، حتى لو تخرج.

خلال أقل من سنة كان قد تعرف إلى الشوارع والأحياء والأزقة، فأحب الأماكن القديمة وخصوصاً تلك المقابلة للقلعة، ثم وجد ضالته على أرصفة منطقة "باب جنين" في قلب حلب .. سوق تتجمع فيه حافلات النقل الداخلي، وعلى أرصفته يفترش الباعة بسطات يبيعون فوقها عملات تبدو قديمة، ولكنها في حقيقتها مقلدة بطريقة متقنة، تماثل العملة الأثرية إلى حد كبير. كان صهيب يجيد النحت والرسم بشكل متقن، ففكر في أن يستغل موهبته في تحقيق دخل ما، فاشترى لوحاً صغيرا من الفخار،

ثم نحت فوقه شكلاً أسطورياً، شبيهاً باللقى الأثرية. وتوجه إلى باب جنين لعله يبيعه.وما أن تلقفه البائع الأول حتى هبّ واقفاً تعدو الدهشة قبله .كان النحت متقنا لدرجة خيالية. سأله البائع إن كان لديه المزيد منها. فأجابه متسرعاً:"نعم"..ثم أردف بلهجة تاجر معتق: "ولكن دعنا نتفق على السعر أولاً"..

بعد أسبوع أحضر صهيب منحوتتين جديدتين، وما أن شاهدهما البائع حتى نهض واقفاً، ثم أمسكه من ذراعه، ودفعه بلطف مقدار خطوتين بعيداً عن الناس هامساً له:

- **"هل لديك أي ارتباط اليوم في السابعة مساء"؟**

استغرب صهيب السؤال، فكان حذراً بالإجابة:

- **"ولماذا"؟**

- **"السبع يريد مقابلتك في مقهى القصر"..**

لفّت الدهشة عيني صهيب بغشاء سميك، فبدا وكأنه أمام فيلم لم تكتمل نهايته:

- **"ومَن يكون هذا السبع"؟**

تلفت البائع مُثيرا الريبة بطريقته في الكلام، فقد كانت قامته أقصر من قامة صهيب مما اضطره لأن يقف على رؤوس أصابعه، ليصل إلى أذن صهيب، الذي أحس بنزق من أنفاسه المشبعة برائحة تبغ رخيص. فنهره صهيب:

- **"يا رجل إنك تثير الشكوك من حولنا .. تكلم بشكل عادي ماذا لديك"؟**

- **"لا تقلق، هناك أمور لصالحك .. فقط شرفنا الليلة في مقهى القصر، وأحضر معك هاتين المنحوتتين".**

قبالة شارع "العنّارة"، كان ثمة مقهى مبني على زاوية حيوية من الشارع..طاولاته ليست كبقية طاولات المقاهي الأخرى، فهي غير مرتفعة، وتصل فقط الى مستوى الركبتين ، مما يوحي بجلسة منزلية. كما ليس فيه من مظاهر المقاهي العادية أي شيء، لا أوراق لعب، ولا طاولات زهر، ولا شطرنج. وثمة لوحة معلقة على الجدار ممهورة باسم: "شريف محرم".

المقهى دائم الازدحام، ليس فقط لكون مساحته صغيرة قياساً إلى المفهوم التقليدي للمقاهي، بل بسبب موقعه في وسط منطقة عمل تجارية: مكاتب محاماة، عيادات أطباء، جريدة الجماهير، مكاتب سفر وسياحة، المحلات التجارية في العبارة، مطعم "سيروب" الذي يقدم حساء ساخناً .. لذلك فهو يبدو مثل مجتمع صغير. يلتقي فيه الفنانون التشكيليون والأدباء والمحامون والتجار.. وهناك نوع آخر من الرواد، لا أحد يعرف الكثير عنهم. هؤلاء بضاعتهم التاريخ .. إنهم يتاجرون بالآثار.

اقترب صهيب من المقهى مستوحشا، حذر الخطى. كان يتمتع برباطة جأش كافية لأن يبقى متماسكاً، ولكن الموقف شكل له مصدر قلق .. الأشياء التي لا نتوقعها، تمنحنا كل المشاعر في وقت واحد، بما في ذلك ضربة حظ محتملة.

الواجهة الزجاجية الكبيرة للمقهى، لا تخفي شيئا من رواده. ورغم الازدحام وسحابات الدخان، ورغم قصر قامة البائع تمكن صهيب من رؤيته بين حشود الزبائن، خصوصاً بعد ان قفز الرجل من مكانه بمجرد رؤيته لصهيب. فأومأ له برأسه مبتسماً على الطريقة التقليدية للعصابات في الأفلام.

كانت طاولة الرجل تقع عند الشباك المطل على الشارع مباشرة، أحس صهيب بشيء من الراحة، فلو أن في الأمر ما يقلق لاختار الرجل طاولة في ركن بعيد ومنزو.. لكنه ما لبث أن فكر ربما يكون في الأمر تمويه.

كان شخص آخر يجلس قبالة البائع، صافحه صهيب بحذر وعدم ارتياح .. يجلس بهيبة شيخ قبيلة، يرتدي زياً لم يعد أحد يرتديه إلا في المناطق الشعبية.فقد التفت حول قامته المتوسطة الطول جلابية بيضاء لامعة فيها خط أسود رفيع، ويضع حول رأسه شماغاً أحمر كالعمامة، لها شراشيب تتدلى حول الجبين وفوق الصدغين، يظهر من جانبي الشماغ شعره الأشقر الذي يميل إلى الاحمرار قليلا، شارباه يمتدان على جانبي وجهه، معقوفان بلطف إلى الأعلى، يلف حول بطنه حزاما عريضا يرتفع قليلاً في الأمام بسبب انتفاخ بطنه. ينتعل حذاء مدبباً من الأمام بحدة و مفتوحا من الخلف، لونه أحمر ناري، وعندما جلس بعد مصافحته لصهيب، ظهر من تحت جلابيته بنطال صوفي أبيض ملتصق برجليه..نظر الرجل الى صهيب

بهدوء مسبوق بابتسامة وردية بلون خديه اللذين يكادان ينفجران من الامتلاء:

- "اسمي عبده ويلقبونني السبع، لو قلت عبده فلن يعرفني أحد".

بعد قليل كان النادل أبو الخير الذي يشبه قبطان سفينة متقاعداً، بشاربيه الأبيضين ووقاره الستيني، يحضر فنجاناً من قهوة "الإيسبريسو"، كان السبع قد نصح صهيب بها، فتذوقها لأول مرة في حياته، ومنذ ذاك الحين لم تفارق صباحه.

هدوء السبع أضفى على الجلسة طابع الترقب.. نظر بطرف عينه الى البائع، فهب الأخير مستأذناً، ثم مضى. ظل صهيب وحيداً في مواجهة احتمالات لا يعرفها. فكّر في أن يفتح الموضوع، لكن نظرات السبع الجامدة كانت توحي إليه أنه هو من يقرر بداية الحديث. لم يكن يرمش كثيراً، حتى عندما كان دخان السيجار الغليظ يصل عينيه الزرقاوين. ليس ثمة انسجامٌ بين لباسه الحلبي التقليدي والسيجار الكوبي .. ولكن بعيداً عن اللباس، اعترف صهيب بقرارة نفسه بأن السيجار يليق بشخصيته المتقدة.

كان السبع خريج قسم الفلسفة في جامعة دمشق،سافر إليها من حلب في السبعينات، كان يعتزم الدراسة والإقامة فيها. إذ رأى فيها اتساع حلمه الكبير، واستطاع أن يحصل على معدل تجاوز الثمانين بسبع علامات، فعينوه معيداً، ثم حصل على الماجستير،وكاد أن يحصل على الدكتوراه، لولا أنه اتجه إلى تجارة الآثار فاضطر إلى العودة إلى حلب.

كان قد التقى في إحدى زياراته إلى حلب، رجلاً خمسينياً في مضافة أهله. انشد السبع إليه، ونمت بينهما صداقة قوية. عرف بعدها صهيب أن الرجل يتاجر بالآثار بين حلب وألمانيا، فأعجبته الفكرة، ولكي يجد مخرجا لنفسه من مأزق أخلاقي كونه مثقفاً وسيتاجر بآثار بلده، راح يوجد مبرراتفلسفية، مثل: "التاريخ صنعته الشعوب ومآله إلى الشعوب"، أو"كسرة فخار مهربة تُعرض في متحف عالمي، خير من تمثال مدفون تحت الأرض".

كان والد السبع تاجراً كبيراً من تجار سوق يدعى سوق "المدينة"، ويقطن مع زوجتيه، وأحد عشر من أبنائه في ثلاثة منازل متلاصقة في حي من الأحياء القديمة حول القلعة الأثرية.

في صباه، كان السبع مغرماً بالقلعة، لدرجة أن حراسها ألفوه فصار يدخل حتى خارج أوقات الزيارة حاملاً إليهم أطباق الطعام. كان يعشق الجلوس قبيل شروق الشمس بقليل في قاعة كبيرة أعلى القلعة، تدعى"قاعة العرش". فيها يجلس متأملاً ولادة جنين الضوء من رحم الشرق فوق حلب القديمة، يرنو بعينين مستسلمتين إلى بوابات المدينة، وأزقتها العتيقة التي أصبحت في حضرة المدينة الجديدة كمعزوفة ناي بجانب صالة لموسيقى الجاز.. كان مشهد الشمس وهي تُسرِّح ضفائرها الشقراء على الجدران يجعله متوهجاً كحبات الفستق الحلبي الأحمر.. لذلك فإن اكبر حزن اعتراه في حياته، حين قرر مجلس المدينة بناء مسرح حديث داخل القلعة في أوائل الثمانينات. أحس بأن هناك جناية يقترفها الحاضر بحق الماضي..ساءل نفسه يومها بغضب: "كيف لحجارة صماء حديثة، أن تجثم فوق صدر التاريخ"؟. ولكن الغيرة نفسها لم تراوده حين أقدم على بيع أول قطعة أثرية في حياته .. الأخلاقيات تصبح أكثر مرونة عندما ننظر إليها من زاوية مصلحتنا .. كان المبلغ الذي تقاضاه في أول مرة باع فيها قطعة آثار؛ يوازي ثلاثة أضعاف راتبه

في الجامعة. يومها قال له التاجر الذي اشترى القطعة منه بعد أن تأكد من تسرب كرامته من بين عينيه المنطفئتين كحلزون فقد قوقعته: "الخير لقدام".

أحس صهيب بالدقائق تطول، أنهى فنجان القهوة في أقل من الوقت الذي ممكن أن ينتهي فيه فنجان ساخن، كان يريد أن يقول للسبع :"وماذا بعد". أخيراً عرف السبع بخبرته أن صهيباً قد أصبح جاهزاً الآن، فقرر أن يبدأ:

- **"أخ صهيب حكي لي البائع جاسم بأنك من قرية تل مرديخ"؟**

- **"نعم".**

- **"وأطلعني أيضا على براعتك في النحت".**

ظل صهيب صامتا بنظرة تعني "وماذا بعد"؟

أعاد السبع إشعال السيجار الذي انطفأ خلال هذا الحديث القصير .ثم أكمل:

- **"أود أن أطرح عليك فكرتين، فأنت طالب جامعي ولست صغيراً، وبالتالي فلديك المقدرة على اتخاذ القرار".**

ظل الصمت هو الإجابة التي قررهـا أيـضا صـهيب، مستدرجاً السبع بنظراته الذكية ليحكي ما يريد.

- "اسمعني جيدا يا صهيب.الخيار الأول لك هو أن تتعامل معي في تزوير القطع الأثرية، ولكن أنا الذي سـوف أحـدد لـك الشكل المطلوب، سأحضر لك صورة الشكل الذي أريده وتقوم أنت بنحته، وسأكون كريما معك"..

استنفد صهيب وسيلة الصمت، وقرر أن يكـون أكثـر مباشرةً:

- "وماذا عن الخيار الثاني"؟

ضرب السبع السيجار بسبابته مخلصاً إياه من كتلة رماد كبيرة:

- "رأس تمثال.."

قالها السبع هكذا مباغتة وفي الصميم وكأنهـا صـدمة كهرباء لقلـب ضـعيف النـبض .. وتـابع بالهـدوء نفـسه، وكأنه لم يقل كلاماً خطيراً:

"في الستينات عثرت بعثة آثار إيطالية على تمثال للملك إيبيط، الذي حكم المنطقة حوالي العام ألفين قبل الميلاد، ووجدوا على صدره ستة وعشرين سطراً بالأحرف المسمارية. ولكن التمثال كان دون رأس، ولن تكتمل قيمته إلا بالعثور على الرأس".

- "الرأس"؟..(تساءل صهيب بدهشة).

- "نعم، وهو معروف في ما بيننا نحن تجار الآثار سراً باسم، رأس الرجل الكبير".

استغل صهيب جزءاً من الثانية كان السبع خلالها يعيد إشعال السيجار فتساءل بدهشة ورهبة يشعر بهما لأول مرة في حياته:

- "ولماذا اخترتني انا"؟

- "سؤال كنت أتوقعه..أنت يا صهيب، وهو أنك من أبناء تل مرديخ، وبالتالي لن تثير الريبة بوجودك هناك".

لم يشتعل السيجار هذه المرة بسهولة، بسبب ارتجاف يد السبع. كان واضحا أن شخصيته ليست بمنأى أيضا عن القلق

في مثل هكذا مواقف..لا يوجد أحد قلبه قدّ من حجر، ولا حتى الذين لا يحبون.

نظر السبع في عيني صهيب نظرة صائبة:

- "**اذا كنت متردداً فعليك بالخيار الأول..ولكن شتان بين ما ستحققه من العملين**".

بديهة صهيب أسعفته للخروج ولو بشكل مؤقت من المأزق، ريثما يتخذ القرار الأكيد:

- "**أعطني مهلة كي أفكر**".

- "**لا بأس كم من الوقت تحتاج**".

"التفكير لا يحدد بمهلة، ولو أنني أستطيع إجبار أفكاري، على المجيء في أي وقت لفعلت الآن وأعطيتك الجواب".

استجاب السبع لرغبة صهيب بكدر ظهر واضحاً على حاجبيه اللذين اقتربا من بعضهما بعبوس خفيف:

- "**لك ما تريد**".

- "**وكيف سأبلغك بالإجابة..أين أجدك أو كيف اتصل بك**"؟

- "ستجدني هنا في الأيام المفردة من كل أسبوع، من الساعة السابعة مساء ولغاية التاسعة".

امتعض صهيب لأن السبع لم يعطه رقم هاتفه، وفي الوقت الذي أبت عليه نفسه ان يطلبه، فهب مودعاً.

****

القـــادم الآخـــر

الحقول الممتدة على جانبي الطريق، من دير الزور الى حلب، بدت من نافذة القطار وكأنها تعدو مسرعة. أسند عادل رأسه على زجاج النافذة السميك، فارتجف جسده كله بشدة، بفعل اهتزازات القطار الشديدة مما دفعه للعودة إلى وضعه الطبيعي متأملا مساحات الأرض الملونة بأعشاب بللها مطر خجول في شهر تشرين. بينما أودعت ابنة أخته روان جفنيها أمانة بيد أحلام أول النعاس.

روان طالبة في السنة الثالثة بكلية الحقوق في حلب، هي ابنة أخته هدى التي يحبها كثيراً كونها رعته وأشرفت على تدريسه في طفولته، كانت روان في زيارة إلى خالتها منى في دير الزور، فقررت العودة إلى حلب مع خالها.. ذكاء هذه الفتاة يغري عادل بمصادقتها: "لا تناديني بخالي، قولي اسمي هكذا من دون ألقاب".. للذكاء جانبية توازي جاذبية الجمال، بدليل أن روان كلما ضحكت يرتمي قمر صغير على أحد خديها..

بدأت معالم الحقول تختفي وراء ستارة المساء الذي راح ينساب بتؤدة مثل كف أمٌ حانية تدثر طفلها بُعيد النوم.. الأشجار في الخارج تحركها ريح عاتية، فتكاد تقفز من جذورها نحو السماء لولا حرص الأرض على التشبث بها.. الأرض تتمسك بالأشجار أكثر مما تتمسك بنا نحن البشر.

دأب عادل في كل إجازاته التي يمضيها في سوريا قادما من الخليج على زيارة حلب،التي درس فيها اللغة الانكليزية، وعشقها بشدة. كان يقول عن حبه للمدينة: "الأعذب لك أن تجعل علاقتك بحلب مثل خاتم الخطوبة، لا تتعجل بنقله إلى اليد اليسرى".

يحرص كثيراً على زيارة أصدقاء خاصين جدا في حلب، أولهم صهيب. كما يزور أماكن بينه وبينها حكايا دافئة، كغرفته القديمة في بستان الزهرة، الملاصقة لغرفة صهيب الفقيرة، ومقهى القصر، والفندق السياحي، والأحياء القديمة المقابلة لقلعة حلب، قبل أن يستريح في مقهى أمام القلعة، فوق مقاعدها المصنوعة من القش بعد جولة في خان شونة.

أصدر القطار صوت صرير مزعجاً حين راحت المكابح تطبق بعنف على العجلات لتوقفها بصرامة .. قرأ عادل من خلال النافذة ، لافتة تشير إلى انه الآن في محطة "الرقة".. فعرف أن الوقت المتبقي هو حوالي الساعتين.

كانت روان غافية في تلك اللحظة، فاستفاقت على صوت المكابح، ولسعات البرد الخفيفة التي دخلت من الشباك، لكن النعاس الشتوي كان قد استحكم في عينيها، فعادتا للإغماض، ثم صحتا بسرعة على صوت بائع حلوى "جوز الهند" وهو ينادي فوق رصيف المحطة. رمقته من خلال رمشين ذاويين، ومن دون أن تحرك رأسها، أدارت حدقتيها باتجاه خالها عادل الذي كان لا يزال متكئاً على النافذة، يرنو إلى خيالات تمرّ حيرى على رصيف القطار.. أرصفة القطارات تثير فيه شجناً يئن كما الحنين في دفاتر المغتربين .. راوده الشعور نفسه، قبل عشرين عاماً حين سافر لأول مرة إلى حلب ليلتحق بجامعتها. فوق أرصفة الرحيل هذه، كل شيء يكون مؤقتا مثل علاقتنا بالحياة. ظلت روان مغمضة العينين، دون إغفاءة. لم تسمح لها لباقتها

بأن تطلب من خالها إغلاق النافذة، لكنها حين تجمعت على نفسها من البرد، أوصد عادل النافذة من جديد.

كان الظلام قد بدأ يلقي رداءه الثقيل في الخارج. شعر عادل بالشجن القديم مرة أخرى، كانت المقاعد مزدوجة ومتقابلة، فدنا إلى الأمام هامساً في أذن روان أن يذهبا معا إلى قاطرة "الكافيتريا"، لكن النعاس المعانق جفنيها أعطاه جواباً مهذباً بأنها غير قادرة. فذهب وحده، سائرا في ممرات ضيقة وقليلة الهواء، حتى أحس كما لو أنه دُفن حياً، ثم استفاق في قبره.

مر عادل بعربات مظلمة يوجد فيها غرف للنوم، انحشر أصحابها فيها على سرر ضيقة كأنما يبيتون ليلتهم في غرف للتحقيق. لولا الهواء المنبعث من فتحات التكييف المستطيلة عند حافة سقف الغرفة.

هو لا يعرف غرف التحقيق شخصيا، لكنه تخيلها من وصف أحد جيرانه الذي اعتقل ثلاث مرات في حياته خلال فترات الانقلابات التي أعقبت الاستقلال. وجارهم هذا ينادونه منذ طفولته باسم سمّور الطبّال، تصغيرا لاسم سمير أما لقب

الطبال فهو مهنته التي كان يعمل بها، ولهذه المهنة حكاية جديرة بأن تروى قبل أن تندثر.

ما أن وضع عادل فنجان القهوة أمامه فوق الطاولة، حتى فاجأته روان من وراء باب قاطرة الكافيتريا الزجاجي تطل بفضول طائر سمع خطوات بجانب عشه.

كان لا يزال شاردا في حكاية سمّور، حين جلست روان قبالته تسائله عن سبب شروده. فوضع فنجان القهوة، جانباً، ثم أخرج قلماً وورقة من حقيبة صغيرة كان يحملها في يده، ليسجل أفكاراً من قصة قديمة سيحكيها الآن لروان:

لم يكن سمّور يفهم بالسياسة، وجلّ ما يعرفه عنها ينحصر في حفظ الشعارات الجديدة التي تخدمه في عمله كضارب على الطبل، كان يتم استدعاؤه عقب كل انقلاب ليضرب على طبلته، محمّساً المتظاهرين المؤيدين للانقلاب الجديد، ولكن هذا لم يكن يمنع سمور من وضع لمساته، وبعض الإضافات على عمله على سبيل المزايدة، أو طمعا في دفع أجر أفضل له، فكان يلصق على أحد جانبي الطبلة صورة الزعيم السابق لينهال عليها ضرباً مع كل ايقاع يهوي به بعصاه على

الطبلة حتى تتمزق الصورة وتتناثر، في الهواء فيلتقطها المتظاهرون وينثرون فُتاتها مودعين قصاصاتها.

كانت طبلة سمور شاهدة على كل الانقلابات المتلاحقة، من عهد قصير إلى آخر. وكان في بداية كل انقلاب يزج به في السجن كونه طبال للعهد السابق، ثم يفرج عنه بعد أن يعلن استعداده للتطبيل في العهد الجديد. ميزة سمّور أنه كان ملتزماً بنفاقه ومخلصاً له. فما أن يخرج من السجن حتى يفي بوعده، ويلتحق بالهتافين الجدد.

بعد ذلك بأربعين عاماً، أصيب سمّور بالصمم الجزئي، ووهنت يده اليسرى، فلم يعد قادرا على الهتاف للسلطة، كما أنها هي أيضا غيرت من استراتيجيتها فاستبدلت سمور بأشخاص مثقفين يؤدون الدور نفسه، ولكن عبر التنظير من خلال شاشات التلفزيون.

عندئذ شعر سمور بالحزن لأنهم استغنوا عن دوره. فضحته عيناه الضيقتان والمحايدتان عندما بكى في جلسة جمعته بوجهاء الحي حين حثّه والد عادل على التحدث، صارخاً في أذنه:

- " تكلم يا سمّور..كفّر عن طبلك "

لم يكن سمّور يحتاج إلى المزيد من الإلحاح، فبدا وكأنه يتحين هذه الفرصة منذ زمن، كان حديثه فطريا وبسيطا وغير عميق، لكنه في صميم شعوره الحقيقي كطبال للعهود المتلاحقة قال:

- "السياسة ليس لها أمان"..

ردد تلك الجملة التقليدية التي يقولها الناس على سبيل تخويف أبنائهم، من الخوض في أحاديث عن السياسة.

ثم أخرج من جيب جلابيته غير المكوية- والتي تشبه كرة من القصدير-علبةً معدنية مسطحة بحجم علبة الماكياج الصغيرة، ما أن فتحها حتى فاحت منها رائحة تبغ وفوقه قشور خيار كي يبقيه رطبا، وراح يلف سيجارة من النوع الذي لم يعد أحد سواه يدخن منه، كان يتلذذ بشخصيته الطارئة،التي فرضتها ظروف الاستماع إلى قصته، وهو يرى كل هذا الاهتمام من الحشد الذي ينتظره كي يكمل، فراح يمارس ديكتاتورية التشويق عليهم.. متلذذاً بلف السيجارة على مهل، ويكمل:

- "في عام 1961، كنت صبيا طالشاً.

(ثم أحس بأنه امتهن نفسه في حضرة الوجهاء فتدارك):

- .."أقصد متحمسا..ومعارضا".

أحس من جديد بأن هذه العبارة أكبر منه، فـاختبر ردود أفعالهم، بأن صمت قليلاً، موهماً إياهم بأنه يريد إشعال السيجارة من الولاعة التي أخرجها من جيبه الآخر.كانت المدة التي تباطأ بها لإشعال السيجارة، كافية للحصول على نتيجة اختبـاره لهـم حول عبارة "معارض".. لكن الجواب جاءه فورا عـن طريـق (أبو جمال) أحد السياسيين المخضرمين الذين لم يستقر بهم الحال على توجه سياسي معين، فتنقل بين شتى التيارات تائهاً بفكـره، تتجاذبه الحيرة أمام النظريات التي قرأها، وبين الواقع الحقيقـي الذي يراها عليه حين تصل إلى السلطة.

كان سمّور قد أمضى بضعة أيام مع أبـي جمـال فـي السجن، ثم أخرجوه لعدم ثبوت تورطه بأي عمل سياسي سـوى قرعه الطبل، لكن المحقق سأله في آخر مرة سجن فيها، في مـا إذا كان يقوم بذلك مجانا أم بمقابل مادي، فاستفسر سمّور منـه

عن الفرق في ذلك، فأجابه المحقق: "لأنك لو كنت لا تتقاضى فهذا يعني أنك تقوم بذلك وفق مبدأ وقناعة".. يومها أعجبت الجملة سمّور، الذي وجد شخصية أكبر منه يرتديها مجاناً، فاختار أن يكون مناضلا بالوصف، فنفى للمحقق أن يكون تقاضى قرشا واحد. لم يكن يعلم سمّور أنه وضع نفسه في ورطة، فأُلقي في السجن مع عدد من السياسيين ومنهم جاره أبو جمال، الذي نظر إليه سمور مستنجداً بشهادته:

- "حتى اسألوا أبا جمال، لقد ضربوني حتى انتفخ جلدي أكثر من طبلي، ولم أعترف على المناضلين ".

كاد أبو جمال يتفجر حنقاً، وهو يستمع إلى طبال يقارن نفسه بالمناضلين.. صار سمّور يرفع صوته أكثر بسبب صممه، حتى بدا لمن لا يعرف علته أنه يلقي خطبة:

- "لقد تناوبوا على ضربي مرتين في اليوم، كانوا يعلقونني بالمقلوب، كالشاة الذبيحة..همس أحدهم موقتاً بأن سمور لن يسمعه: "هذا هو الوضع الطبيعي لك".

كان سمّور خلال فترة صممه قد اعتاد قراءة حركة الشفاه، ويستطيع من خلال انفتاحها وانغلاقها، أن يستبين بعض الكلمات التي توصله الى تخمين الجملة كاملة. لذلك أحس بأن عبارة الرجل لم تكن في صالحه، لكنه مع ذلك أكمل غير مبال:

"كانت الغرفة التي حجزونا فيها نحن المناضلين.. (ثم تلفت مرة أخرى حوله راصدا أي حركة غامزة.. وتابع): لا تتعدى الأمتار الخمسة طولاً وعرضاً، وكنا حوالي ثمانية أشخاص، تلتصق أنوفنا ببعض ونحن واقفون. لم يكن في الغرفة سوى نافذة واحدة في أعلى السقف..

لم يتمالك أبو جمال نفسه، فخرج عن هدوئه المعتاد صارخاً في وجه سمّور ومخترقاً صممه، لكي يوقف هذه المهزلة:

- **"انت مجرد طبال كنت تطبّل من عهد إلى آخر"..**

رد سمور بجملة تفاجأ بها شخصياً:

- **"كلانا بالهوى سوا. أنا اطبّل من عهد إلى آخر، وأنت تتقلب من تيار إلى آخر..على الأقل انا من الأصل بلا مبدأ،**

ولكنك أنت كل يوم بمبدأ. رسّنا على بر يا أخي. (ثم تابع بحنق): "أنت حتى التطبيل لا تستاهله"..

ساد صمت مفتوح على كل الاحتمالات..

أبو جمال رجل في الخامسة والستين من عمره، شعره ابيضّ قبل أوانه، تلمح في وجهه صرامة ناشفة كأنما جلد وجهه لا تمر من تحته أوردة ولا شرايين. لذلك بدا لونه داكنا على اصفرار، ولديه خط غائر وطويل يمتد من أسفل جفنه الأيمن حتى آخر عظمة الحنك محاذياً للعين، هو أشبه بتجريح الوجوه الذي تمارسه بعض القبائل الأفريقية. كان هذا الجرح هو الشاهد الذي استعان به أبو جمال حين صرخ بسمّور الطبال بأعلى صوته كي يسمعه :

- "اسكت يا سمور..شرشحت النضال والمناضلين.. (ثم أشار إلى الجرح الذي في وجهه): هل تذكر هذا الجرح الذي وُشِمتُ به بسببك؟..

ساد صمت مغلّفٌ بالذهول.. تلفت الحضور إلى بعضهم، مستفسرين بنظراتهم في ما اذ كان أحدهم يعرف القصة ..

لكن الصمت الذي ارتسم في وقت واحد على كل الوجوه، أعطى إجابة بالنفي، فطلب أبو صهيب من أبي جمال أن يكمل:

- "وما علاقة سمور بالموضوع"؟

حاول أبو جمال أن يكتم سرا ظل يداريه لأكثر من عقدين من الزمن،خشية أن ينتقم أولاده من سمور، ولكنه لم يعد قادرا أكثر من ذلك، فالمسألة فيها اتهام لرجل، ولا بد من الإتيان بالبينة، خصوصاً، وأنه عزّ عليه أن يرى تاريخه النضالي يصادر من قبل طبال، فقال بهدوءٍ كلماتٍ تشبه في طريقتها تلك التي ينطق بها المحتضر لورثته، وهو على فراش الرحيل:

- "نعم سمّور هو الذي وشى بي ، كانوا يبحثون عنا في كل مكان. فلم أجد إلا القبو الذي كان جارنا حمود يذبح فيه الخراف خارج المسلخ. مكثت هناك ستة أيام قبل أن أسمع وقع خطوات في فناء الدار عند حافة شباك القبو، فرفعت رأسي لأجد أقداماً تتجه نحوي، وكان بينهم صوت سمّور، وهو يدلهم: "من هنا أنا متأكد"..

كان باب القبو الخشبي يومها مغلقا، والخراف ترسل أنفاسا خانقةً، أنا والخراف مصيرنا بدا متقاربا في تلك اللحظة، كلانا كان يستشعر الخطر، لكن لا يعرف المصير. من المؤلم أن لا يفرق الذبح بين البشر والخراف.

قاطع أبو عادل محاولاً احتواء الموضوع:

- **"وما أدراك أنه هو يا أبا جمال، أخشى أنك تظلمه، ما دليلك على ذلك؟ هل رأيته رأي العين"؟..**

- **"نعم يا أبا جمال، فعندما دخلتْ مجموعة من الرجال إلى القبو، ولا أتذكر عددهم بالضبط، على الأغلب كانوا خمسة، لم يكن هو بينهم، رغم أنني سمعت صوته، ولكنني لاحظت من الشباك، بعد دخولهم بأن رجلاً ظل في الخارج، وعندما أخرجوني موثوق اليدين، تعمدت ان أنظر إليه، فحاول أن يتوارى لكن سرعته لم تسعفه إذ لا مكان في الفناء يختبئ وراءه سوى خابية ماء من الفخار فلاذ خلفها، دون أن تتمكن الخابية من إخفائه يومها انقضضت عليه بعد أن أفلتُ جسدي من قبضاتهم، وكدت أصل إليه، لولا أن أحد أفراد**

المجموعة دفعني بقوة فارتطم وجهي بطرف خابية الماء الفخارية، فكان هذا الجرح.

أطرق أبو جمال، وظل شاردا، وحريصاً كأنه يُلَصِّقُ قطعة نقود ممزقة ثم أكمل متنهدا:

- "لن اظلمه إن شاء الله يا جماعة، كان هو تبيّنتهُ على الرغم من الظلام الحالك،على ضوء المصباح اليدوي الذي كان يحمله الشخص الممسك بي..شعره النحاسي أضاء تحت المصباح كشاهد عليه..أنا الآن سامحته، لا أريد منه شيئاً سوى أن يكف عن الادعاء بأنه كان مناضلا"..

أحس سمور بجذوة غضب مفاجئة فصرخ بسخرية:

- "هه..هذا نتيجة نضالكم".. (وأشار إلى لا مكان في الهواء).

أبو جمال قرر التقاعد عن العمل السياسي فتصوّف في تكية "الشيخ ياسين"..وأطلق لحيته، وصار يحمل سبحة فيها مائة حبة وحبة.

بدأ القطار الذي يقلّ عادل من دير الزور إلى حلب يبطئ من سيره، وهذا يعني أنه شارف على الوصول. وتأكد ذلك لعادل

حين لاحت صوامع الحبوب الأسطوانية.. ثم بدأ القطار ينساب لينا في عمق المدينة، كنصلٍ حاد في لوح إسفنج، ماراً بملعب لكرة القدم، فعرف بأنه ليس بعيداً عن بيت أخته هدى، وعائلتها المكونة من زوجها وستة أبناء.

يوم جاء عادل إلى حلب لأول مرة في الثمانينات، لم تكن بيوت الإيجار متوفرة بكثرة. يومها بحث طويلاً قبل أن يحصل على غرفة صغيرة وجدها في شقة تضم أربع غرف في "بستان الزهرة". اصطحبه إليها صاحب بقالة يعمل دلالاً لبعض العقارات. أخبره البقال يومها بأن صاحبة الغرفة امرأة عجوز، وتريد تأجير الغرفة بسبعمائة ليرة. كان المبلغ مرتفعا قياسا الى الوضع المادي لعادل آنذاك، لكنه وافق فهي في النهاية أفضل من غرفة المدينة الجامعية التي تضم سريرين في غرفة ضيقة.

عادل "روحه واسعة"، كما كانت تقول له رولا الفتاة المسيحية التي أحبها في دير الزور، واستأذنها منذ أول لقاء أن يناديها باسم آخر:

- "هل تسمحين لي أن أطلق عليك اسماً آخر"؟

- "لماذا"؟..ردت رولا وقد عبست وابتسمت بآن معا في حركة محيرة.

- "أريد أن أشعر بأن كل شيء فيك بدأ الآن من اللحظة التي عرفتك"

- "وماذا ستسمينني"؟

(صمتَ كمن يبحث عن شيء لم يُخلق بعد):

- "بصراحة لم أجد..أنت أجمل من أن يكون لك اسمٌ مثلنا نحن البشر"..

- "....." وتورد خداها.

- "أحب في المرأة أن تكون مثل ريشات ثلاث: ريشة يمام في رشاقة تفكيرها، وريشة نعام حين أتوسد قلبها، وريشة طاووس في كبريائها".

عند المساء دخلت رولا إلى الغرفة التي تجلس فيها أمها مع أختها الصغرى، ثم وقفت على أطراف أصابعها، ودارت حول نفسها كما تفعل راقصات الباليه.

بعد خروجه من المحطة، تلفت عادل حوله، لم تكن الشوارع المحيطة بالمحطة قد تغيرت كثيرا،المدن القديمة غالباً ما تحافظ على ملامحها في القلب، وتتبدل من الأطراف. الجدران الصامتة توحي بأن لا شيء عظيمٌ حصل منذ آخر زيارة قام بها عادل إلى حلب، إلا من تراكم النعوات الورقية التي التصقت فوق بعضها على الجدران.

كان ثمة سائق أجرة يقف منتظراً الزبائن، وقد استل مشطا بلاستيكيا صغيراً من جيب قميصه، وراح يرمم به صلعته، ساحباً خصلات شعر من صدغه الأيسر إلى الأيمن. حملت روان حقيبتها على كتفها، وأمسكت بيدها الأخرى ذراع خالها، ثم أشارت إلى السائق بإيهامها علامة طلب الركوب.

****

القـــرارالمنعطـف

قبل عشرين عاماً، وفي هذه الغرفة التي شـــهدت مولـــد رجل ثري من عدم الحياة، أمضى صهيب خمسة أيام غارقاً في الحيرة. ظل العرض الذي قدمه له السبع يطارده حتى في قاعـــة المحاضرات..كان يمضي جلّ وقته في غرفته، حتى ظن عـــادل أنه سافر إلى تل مرديخ دون أن يخبره، لولا أنه أحس ليلاً بباب الغرفة يُفتح، فقفز من مطرحه متفاجئاً"

- "صهيب أنت هنا؟!..ظننتك سافرت"؟..

لم يستطع القلق أن يختفي من عيني صـــهيب قبـــل أن يلمحه عادل، فأجاب وقد انتفخ جفناه من قلة النوم:

- "وهل كنت سأسافر دون أن أخبـــرك"؟ (رد صـــهيب بـــوهن واستسلام، ثم تابع):

- "كنت متوجها إلى المطبخ أعدّ الشاي هل تشرب معي"؟

الشرفة بالكاد تتسع لهما، لذلك كانا يضعان كوب الشاي على حافة الشرفة. وقتها كانت الـــسماء قـــد غـــسلت ســـديمها

في النهار بمطر غزير، لذلك ظهرت صافية في الليل، تستعرض عقد نجماتها على جيد الأفق البعيد..

شعر عادل بأن صديقه ليس كما عهده، لكنه انتظر برهة من زمن، قبل أن ينظر إليه نظرة المستفسر..

حدّقَ صهيب إلى نجمة كانت ترسل ضوءا أكثر سخاء من نظيراتها، ثم أشار إليها محدثاً عادل:

- "ما قولك لو امتلكت هذه النجمة"؟

كان من عادة صهيب أن يحاول تقليد عادل في شاعريته أحيانا، لذلك لم تلفت العبارة نظر عادل إلى أن أردف صهيب:

- "عادل، معروض عليّ ثروة هائلة أستطيع فيها شراء هذه النجمة"..

تأكد عادل من أنه وضع كأس الشاي على حافة الشرفة الضيقة بأمان، ثم حنى ظهره ليصبح وجهه أكثر قرباً من صديقه، وسأله:

- "أي ثروة يا صهيب، أنت لا تزال طالباً في الجامعة، ولا ثروة في هذه الحالة إلا من صفقة مخدرات!

ليست المخدرات وحدها تفعل ذلك يا عادل".

- "إذاً كيف"؟

- " بالتاريخ يا عادل..معروض علي أن أبيع التاريخ.." ؟

- " أرجوك يا صهيب تحدث بالمعقول، لولا أنني أعرف مدى التزامك، لقلت بأنك ثمل".

اتخذ صهيب وضعية المنظرين اليساريين، فأرجع جسمه للوراء، وراح يضبط حركة يديه على إيقاع كلامه:

- "التاريخ يا عادل تجارة الأذكياء .. كثيرون قبل أن يتسيدوا المستقبل عليهم أن يفهموا الماضي أولاً .. أكثر الأحداث الجسيمة التي تحصل في الحاضر هي ضريبة ما حدث في التاريخ".

- "بهذه الحالة التاريخ لعبة الوصوليين وليس لعبة الأذكياء"؟

- "من قال لك بأن الوصوليين أغبياء"؟!

- "ولكن ما علاقة هذا بثروتك، هل تريد ان تصبح زعيماً"؟!

أعاد صهيب صديقه عادل إلى الدوامة نفسها:

- "ليست الزعامة وحدها تدر عليك الثروة، بل إن كثيراً من الزعماء عاشوا زاهدين"..

لم يشأ عادل أن يعقب، ترك ساحة الحديث خالية ليغوي صهيب بالاستمرار:

- "اسمعني يا عادل سأكون معك مباشراً في الحديث كي لا أتعبك، لأنه يهمني في هذه اللحظة بالذات أن يكون ذهنك مرتاحا لتفكر معي جيداً".

راح صهيب يسرد على عادل قصة العرض الذي تلقاه من السبع، سواء بالبحث عن رأس تمثال الملك الأموري "إيبيط"، أو بتقديم منحوتات فخارية على الألواح الصغيرة. واضعاً أمامه كل الاحتمالات الممكنة:

- "إن عثرتُ على رأس الرجل الكبير تكون مزاليج أبواب الثروة قد تكسرت أمامي، لكن ثمة مخاطر كثيرة تعترضني .. المسألة لن تكون سهلة، فقد أقع في قبضة الأمن، وقد أقع ضحية غدر من جماعة السبع..لا أدري أنا محتار يا عادل".

اللحظات التي لا نصدقها، تتحول فيها الدهشة إلى غشاوة تطمس أبصارنا..هذا ما حصل مع عادل، وهو ينظر إلى صهيب، الذي بدا هذه المرة لا يشبهه حتى في شكله، فقد تدلت شفتاه واتسعت عيناه كنمر يتحين الانفراد بفريسة سبق إليها قبل أن يسبقه إليها القطيع .. ثم قال بحرص واضح:

- **"في كل الحالات هذا خطر أخلاقي قبل أن يكون أمنيا، أنت تتاجر بأناس ميتين، لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، هؤلاء كانوا يوما ما ملوكاً ومحاربين أشداء لهم سطوتهم، هل كنت ستقدر عليهم وهم أحياء.. "؟**

- **".....".**

- **"أنت إن عثرت على رأس التمثال وبعته، فستكشف ظهر أجدادك للغرباء وللفاسدين، وإن بعتهم ألواحاً فخارية من صنع يديك، فأنت تقدم لهم تاريخا مسخاً لم يصنعه الأولون".**

- **"دي خطتي يا عادل"**

وقبل أن يسأل عادل عن الخطة،حسم صهيب الموقف حين هب واقفاً:

- "أعتذر منك يا عادل أنا متعب، وغدا لـدي موعـد مهـم .. تصبح على خير".

بدا مقهى القصر بجدرانـه الزجاجيـة والمطـر يـزخ من حوله، كحوض أسماك في مدينة مائية .. كانت الساعة قـد تجاوزت السابعة مساء حين فتح صهيب باب المقهـى متفرسـاً وجوه الجالسين، بصعوبة من بين غمام السجائر. كان وجه السبع مميزاً، ويمكن للعين أن تكتشف هندامه بـسهولة .. وحـين لاح طيفه على البعد، أبطأ صهيب من حركته، كي لا يوحي له أنـه كان يبحث عنه بشغف، لكن خبرة السبع جعلت صهيباً يومئ له برأسه، وبعلامة تفضل.

لم يشأ السبع أن يفضح لهفته لرد صهيب على العرض، فراح يتحدث عن الحراك السياسي الـذي كـان حينهـا ينـشط في حلب:

- "كيف الأوضاع عندكم في الجامعة"؟

- "أية أوضاع تقصد"؟. (تساءل صهيب بحذر لأن كلمة أوضاع بدهياً أصبحت تعني الأوضاع السياسية داخل البلد ثم تابع):

- "حبذا لو تحدثنا بموضوع آخر"

تبسم السبع بوقار واضح وهو يرد:

- "إنه مجرد نقاش فأنا لا أحمل آلة تسجيل في جيبي"..

السبع الآن هو التاجر المهم الذي يجلس في مقهى القصر، ويقعد قبالته صهيب الذي نزع في ساحة هذه المعركة كل أسلحة رفضه. قال السبع لصهيب وهو يشرح له كل ما يمكن ان يعترضه في رحلته إلى "تل مرديخ" للبحث عن رأس تمثال الملك الأموري "إيبيط". ثم أخرج له لفافة ورق مقوى وطلب منه أن لا يفتحها إلا في المنزل، وأخبره بأن اللفافة فيها صورة لجسد الملك "إيبيط"، والمكان الذي عثرت فيه البعثة الإيطالية على التمثال، وبعض الرموز الدالة على الأماكن المحتمل وجود الرأس فيها. ونبهه إلى صعوبة مهمته حيث:"لم يكن للأموريين في بداية وجودهم مساكن ولا مدن ثابتة". ثم طلب منه ان يبدأ رحلة البحث عن الرأس:

- "سيكون رمز العملية السري في ما بيننا (رأس الرجل الكبير)..اتفقنا"؟

صمت صهيب برهةً،وقبل أن يغادر، أومأ للنادل أبو الخير:

- "سأدفع أنا هذه المرة ثمن الطلبات"..(ثم نظر إلى السبع مبتسماً من زاوية فمه):

- "بروفة ثراء".

****

مسامرة الموتى

بدأت الأعشاب الربيعية تطل برؤوسها المدببة، من خلال الصخور النائئة والمرصوفة منذ آلاف السنين في سهول "تل مرديخ".

تذكر صهيب عبارة كتبها ذات أمسية صديقه عادل: "اكبر درس للطغاة هو منظر عشبة تطل من بين صلابة الصخور".

الأرض هنا ترتدي تربة حمراء قانية، كأنها بردةٌ من الصوف المنفوش بعد موسم عاصف من الأمطار التي غسلت رؤوس الحجارة الأثرية..تظل المنازل الأولى مقفرة تمر فيها الرياح مثل حكاية عابرة يرويها التاريخ هنا على سبيل المباهاة ثم يمضي.. حصون المناطق الأثرية تدعو للألم عادةً، فهي تبدو واهنة كأنها لم تكن يوما سوراً حصيناً في ساحة معركة، ولا تدحرجت بجانبها رؤوس المقاتلين .. بضع فراشات يؤرجحها الهواء، الذي لا يزال باردا، تمر فوق ممالك كانت يوما ما مأهولة بالملوك والجنود والنساء والرعاة والشعراء

والكهّان. لم يبق من هذه الممالك اليوم سوى شظايا من جرة ماء من صلصال لا ندري هل كانت معلقة على خصر محارب، وأطاح بها سيف الزمان.. أم كانت فوق ثغر عذراء، ثم ارتمت منها فجأة حين لمحت فارساً له شخصية من ياقوت في لحظة دهشةٍ مدوية.

كان صهيب قد انتظر حلول شهر نيسان حتى يتمكن من البدء في التنقيب، فالحفر مستحيل في الشتاء. عندئذٍ أوقف تسجيله في الجامعة عاماً كاملاً. وحين سأله الموظف الذي كان من قريته نفسها عن السبب، أخبره بأنه يريد التفرغ لعلاج والده، ولكنه تنبه إلى أن الموظف من قريته وقد يكتشف الكذبة لاحقا، فاستدرك: "أريد ايضاً أن أتاجر بزيت الزيتون". انقلبت شفتا الموظف ومال برأسه إلى اليمين راسماً علامة استغراب، ثم طرق على الطاولة برأس القلم عدة طرقات:

- "مستقبلك وأنت أدرى به".

قفز طائر بحجم عصفور؛ لكن لونه أبيض وله ذيل أسود طويل. أنزل صهيب الحقيبة المعلقة على ظهر الحصان الهزيل الذي اصطحبه معه. كان قد وضع في الحقيبة ادوات خاصة

بالحفر والتنقيب عن الآثار، لها أشكال خاصة، وحساسية شديدة.أخرج مجرفة صغيرة ثم غرزها في باطن الأرض وغرف حفنة من التراب الأحمر، وتفحصه.. كانت الحفنة ممزوجة بحبات من الكلس الأبيض، تأمّل صهيب حجمها بإمعان، فإن كانت كبيرة، فهذا يعني - بخبرة المنقبين على الآثار- أن الموقع مأهول منذ مئات السنين، أما اذا كانت الحبات صغيرة، فهذا يعني ان الأرض لم تُسكن من قبل. لكن معايير التربة الحمراء في الكشف عن الآثار، تختلف عن التربة الصفراء، في هذه الأخيرة يحدث العكس.

كان صهيب يبدأ الحفر عند أول الفجر، ثم يتوقف حين تبدأ الشمس تكشف عمّا تحت هيمنتها من حياة.. موقع التنقيب لا يبتعد كثيراً عن مركز القرية، لذلك كان صهيب حذراً، واحتاط للامر بأن أخذ معه كتاباً جامعياً، تحسباً لأن يراه أحدٌ يعرفه فيتخذ وضع القراءة.

يوما ما كانت هذه البقعة المنسية من الأرض مملكة مترامية الهيمنة، وذات نفوذ عظيم. ولكنها اليوم انكمشت إلى قرية صغيرة، مثل ملكة جمال بلغت من العمر أوهنه فانفضت

للدنيا من حولها، ولم يبق لها من ذكريات الأضواء، سوى تـاج مركون في خزانة الثياب إلى جانب شعرها المستعار.

أسبوع كامل مضى، وصهيب مـا زال ينـبش الأرض بشغفِ محراثٍ قديم. استل من حقيبته قضيباً معدنياً طويلاً، لـه رأسٌ لولبي يشبه رؤوس مفاتيح الزجاجات، بَرَمه فـي الأرض حتى غاص إلى ثلاثة أرباعه، وكـرر العمليـة عـدة مـرات؛ ثم سحبه إلى الأعلى وتركه يهوي في الأخـدود الـذي خلّفـه الحَفْر.. كانت تلك طريقة أخرى يستخدمها المنقبون سراً علـى الآثار. فإذا ارتد القضيب الى الأعلى، فهذا يعني أنه وقع علـى قبر أثري، أو أنه ارتطم بسقف مدفنٍ ما، وإذا استقر في مكانـه فيكون قد ارتطم بالأرض.

في المحاولة السابعة،عند اليوم التاسع، كانت زرقة الفجر ما تزال داكنة. لمح صهيب تحت مصباحه اليدوي بقعـة أرض بمساحة مترين، لونها يختلف عن لون الأرض المحيطة بها.

ثمة ظلالٍ لراعٍ مع قطيعه المتعب؛ راحت تستطيل على الأرض جراء انعكاسات القنديل الذي الذي يتأرجح بيد الراعـي .. أصوات الأجراس المعلقة في رقبة الكبش الذي يـسير فـي

مقدمة القطيع، ويسمى "مرياع"، تؤلف لحناً ينبه القطيع بضرورة الالتزام بمن يقوده.

بدأ صهيب يزيح التراب عن هذه البقعة بلطف، كمن يمسح الغبار عن طاولة قديمة. اصطدم المكشط بصلابة لا تتناسب والتربة الرخوة. عليه أن يكون حريصا في الحفر كحرص أم تسند رأس ابنها لحظة الإرضاع.

تحركت دودة أرض حمراء هلامية، تركها الحفر في العراء. راحت تتلوى بحسرة الضعفاء، ثم اندست في التراب من جديد. الديدان لو هُجِّرت من جحورها، تلقى مسكنا آخر دائماً، وليس مؤقتا أو مخيما كما يحصل عندنا نحن البشر. همس لنفسه صهيب وهو يراقب الدودة ثم ردد: "الكائنات التي جاورتنا على هذه الأرض لم ندعها تعيش بسلام".

بفرشاة ناعمة تشبه تلك التي تستعملها النساء في وضع البودرة على الوجه، أزاح صهيب كتلة من التراب المتجمع فوق صخرة بيضاء لم يظهر منها الا اليسير،كان عليه أن يوازن بين لهفته ودقته في ازالة التراب، ولو غلبته لهفته فسوف يتلف ما يعثر عليه..

انفرجت التربة عن صخرة بحجم كتاب.. لم تكن هي المرة الأولى التي يعثر فيها صهيب على آثار في هذ المنطقة، فقد مارس هذا العمل من قبل مرات قليلة عندما كان في السادسة عشرة من عمره، ومرة واحدة قبيل حصوله على الثانوية. ولكنه في كل مرة كان يعثر على جرة فخار أو حجر من عقيق، أو قطعة نقود..

بدأت الصخرة تتخلخل من مكانها بعد أن أزاح ما حولها من التراب .. تلمسها بحرص مُختبراً صلابتها، وحين تأكد من ذلك، حملها برفق كما يتلقف الطبيب مولودا للتو ينزل من الرحم.

فتح الفجر عينيه عن ضوء مشوب بالزرقة، كانت أصوات أجراس القطعان قد بدأت تتأى، مثل ناقوس يقرع بحزن لأن المصلين لم يلبوا النداء.

نفخ صهيب الغبار المتبقي على وجه الصخرة، كآخر ستار يحميها بعد أن ظلت آمنة تحت التراب لمئات السنين. منقوش على الصخرة طائرٌ مجنحٌ، يفرد أحد جناحيه إلى جهة اليمين، إن أمعنت النظر فيه جيدا، ستكتشف أن تحت الريش

ختما دائريا، بداخله مثلث أحد أضلاعه غارق بالمياه، وهذا يعني، حسب شيفرة فك الرموز التي أعطاه إياها السبع، أنه يتوجب عليه جعل هذا الضلع باتجاه الشرق، حيث نهر الفرات. عندئذ سيصبح رأس المثلث باتجاه الشمال، حيث هضبة الأناضول، وسيلاحظ حاملها عندئذ أن الضلع المتجه إلى الشمال أطول من بقية الأضلاع، ويمتد خارج المثلث. وهذا يعني أن عليه الحفر في الاتجاه الذي يشير اليه الضلع الأطول.

تلك الرموز تدل أيضاً على وجود مقبرة هنا، وهذا يعني أنه أمسك بخيط ثمين. وضع الصخرة برفق في جيب حقيبته بعد أن لفها بقطع من القماش عدة مرات، ثم غطاها بشريحةٍ من الإسفنج، وعاد إلى خيمته الصغيرة التي نصبها على التلة الأخرى الموازية للتلة التي قرر أن يبدا الحفر فيها فجر اليوم التالي.

كانت الخيمة مصنوعة من وبر الماعز، وهي تكفي لشخص واحد وبالكاد تتسع لقامته الطويلة، إن نام بوضعية الجنين. استلقى قليلاً، غالبته غفوة عابرة، لكنه ما لبث أن صحا على صوت همهمات الحصان، تذكر أنه لم يطعمه منذ عشية

أمس. نهض متثاقلاً، ثم خرج منحنياً من الخيمة التي كاد رأسه أن يصطدم بسقفها، ملأ جراباً جلدياً بالعلف، ثم علقه جانبي رأس الحصان ليأكل منه، وعاد منهكاً إلى الخيمة، وما أن لامس رأسه حافة الحقيبة التي يتوسدها، والتي يخبئ الصخرة فيها، حتى غرقت أجفانه في عتمة السبات العميق.

مساحات الزهور المحيطة بالخيمة، قد تمنح الشاعرية لكنها لا تمنح الأمان، الخطر هنا في أي لحظة متحفز في كل مكان، الحجارة التي رفعها خلال التنقيب كانت تؤوي تحتها عقارب صفراء .. لم يغف طويلاً، انقلب على جنبه الأيسر، ثم فتح عيناً واحدة بكسل، شدّه مشهد عنكبوت نسج خيطاً واهناً بين زهرتين بريتين .. تحرك الخيط ليس بفعل الهواء الناعم الذي هبت دفقةً مباغتة منه، بل بسبب خطوات ثقيلة كانت تدك الأرض بشكل مهيب.. سرى نشاط في جسد صهيب لا يتناسب ولذة النعاس في هذه الساعة الصباحية الوادعة. ظل متكئا على جنبه الأيسر، وزحف بهذه الوضعية، إلى أن وصل جدار الخيمة، فرفعه مستطلعا مصدر الصوت.كان ثمة رجل قصير القامة، نحيل الجسم، شعره منسدل على الكتفين بالتواءات

متعرجة. عينان داكنتان مثل قبر محفور في الجبال. فمه يختفي وراء شاربين، ولحية تركها تنمو على هواها. يرتدي جلابية سوداء، عالقٌ في أذيالها الطويلة بقايا أعشاب وتراب أحمر وزهور. يحمل عصا لا يبدو أن له فيها أي مآرب سوى أنها من مكملات مظهر الحكمة التي بدت على ملامحه .. أو ربما الجنون .. راح الرجل يقترب من الخيمة ضارباً الأرض بعصاه بقوة، كأنما يدكها دكاً فيترك حفرة في التراب الطري. اقترب الرجل من خيمة صهيب، ثم فجأة أسرع إلى حيث يقف الحصان، ورفع عصاه إلى الأعلى ثم هوى بها على شيء ما تحت حوافره، معيداً الكرّة مرات متتالية قبل أن ينحني لالتقاط ثعبان كبير أملس، أصبح بفعل الضربات رخواً كحبلٍ مدلى في ساقية.

ظل صهيب منبطحا على جنبه الأيسر، يرقب المشهد بشك، معتقداً للحظات بأن الإرهاق الذي انتابه خلال الأيام التي أمضاها في الحفر والتنقيب، هو الذي هيأ له هذه الأوهام.

ألقى الرجل الغريب الثعبان لمسافة بعيدة في الهواء، وتابعه إلى أن سقط على الأرض، ثم تقدم نحو صهيب الذي خرج من الخيمة مقرفصاً، وحين أصبح خارجها وقف جامدا

بلا حراك، يتصبب عرقاً رغم الجو البارد، بدا كعمود كهربـــاء خشبي في ليلة ماطرة.

على غير ما توقع صهيب، نظر الغريب إليه نظرة باردة غير مرتابة، بدا كما لو أن الموقف مألوف لديه. وتأكـــد ذلـــك، حين سأله صهيب بلكنةٍ بدت وكأن صاحبها عاش في عزلة حتى نسي الكلام .. كان السؤال مباغتا وبلا مقدمات ولا حتى تحية:

- "رأس الرجل الكبير.."؟

شعر صهيب، كما لو أنه يهلوس من شدة السهر.فبادلـــه السؤال بمثله:

- "من أنت"؟

نظر الغريب إلى حيث سقط الثعبان ليتأكد مـــن موتـــه، ثم قال بلهجة تدعو للاطمئنان:

- "أنا من جماعة السبع، وقد أرســـلني إليـــك لأرى إن كنـــت تحتاج شيئا"

خشي صهيب أن يكون في الأمر مكيدة ما، خصوصاً وأن حراس الآثار يجوبون هذه المناطق بين الوقت والآخر، فترك بينه وبين الغريب مسافة خلاص محتملة:

- **"ولكن السبع لم يخبرني بأمرك"!**

- **"اذاً فأنت جديد بالعمل معه"**

ظل صهيب صامتا ليتيح للغريب أن يقول ما لديه:

- **"السبع دائما يترك زاوية معتمة في خطته، لا أحد يراها سواه"**

كان هذا الوصف مريباً ومقلقاً بالنسبة لصهيب الذي لم يكن يتوقع أن تتوسع دائرة السبع بهذا الشكل. كان يظن أن الامر يقتصر عليهما فقط، فأحس بورطة أكبر من تخميناته البسيطة:

- **"وهل تعمل انت مع السبع منذ زمن بعيد"؟**

- **"أنا في هذا المكان قبل أن أعمل مع السبع"**

- **"وماذا تفعل هنا"؟**

رد الغريب بجملة صادمة جعلت صهيب يجفل إلى الوراء كحصان يأبى القفز فوق حاجز:

- "أنا هنا أحرس أرواح الملوك والرعية تحت هذا الثرى".

نظر الغريب إلى داخل الخيمة، كمن يستأذن بالجلوس، فتنبه صهيب إلى أنه ترك الرجل واقفا طوال هذه الفترة، ولكنه مع ذلك كان متردداً وهو يدعوه إلى الخيمة الضيقة التي لن تتسع لكليهما إلا قرفصةً. ولأن الجو كان ندياً جلسا خارج الخيمة.

نظر الحصان إلى الرجل الغريب نظرة فيها امتنان على إنقاذه من الثعبان، ثم هزّ رأسه بقوة كمن يحاول التخلص من جراب العلف الذي علّقه له صهيب في رقبته في الصباح الباكر. لم يستجب صهيب لمحاولات الحصان انتزاع الجراب، فانهمك مع الرجل في حديث غريب بدأه الضيف:

- "كنت قبل عشر سنين أعمل مع بعثة آثار يابانية، مندوبا عن دائرة الآثار، وتعرفت حينها إلى فتاة تدعى "توريكو"، لم تكن هي تعمل في البعثة، بل صديقتها. وكانت توريكو تُعدُ رسالة

دكتوراه في فنون الشرق، فجاءت إلى حلب وكانت تحضر مع صديقتها إلى هنا بين الوقت والآخر لترسم.

ظل صهيب صامتاً، لا يدري حتى الآن إن كان هذا واقع أم هلوسات السهر.. وتذكّر تحذيرات صديقه عادل له، والذي كان يؤمن بالروحانيات، بأن المناطق الأثرية، وخصوصاً المقابر، تحرسها أرواح جنودها المقاتلين. يومها قال له: عن الملوك "أنهم يهتمون بالقبور كاهتمامهم بالقصور، ليقينهم بأن حياة أخرى من الرفاهية تنتظرهم هناك".. ثم عقب: "يريدونها في الدنيا والآخرة".. أجرى صهيب اختباراً عاجلاً ليتأكد في ما إذا كان ما يراه هلوسة أم هي أرواح المحاربين، أم هو واقع.. فنهض مستأذناً الرجل الغريب، ثم توجه الى الحصان، فخلع عنه الجراب المعلق في رقبته، وحين داهمته أنفاس الحصان في وجهه، أدرك على مضض أنه الواقع، فعاد إلى محدثه:

- **"أعتذر لمقاطعة حديثك تفضل".**

تابعَ الرجل الحديث وكأنه لم ينقطع:

- "في تلك الأيام كنت ألاحظ أن نوريكو تبطئ السير حين تمر بجانب موقع قديم، وتنقل خطوها كمن يمشي على أطراف أصابعه .. كانت تتعامل مع الموتى باحترام تعاملها مع الأحياء".

أحس صهيب بأن الحديث لا يعنيه، لكنه قرر الانتظار لباقةً منه، وانتظاراً -ربما- لشيء مهم قد يقوله الرجل.

أوقف الرجل عصاه، وأمسكها من منتصفها وراح يخط بها على الأرض شكل جناح طائر بشكل متقن، فسأله صهيب باستغراب:

- "هل مارست الرسم من قبل"؟

سقطت نصف ضحكة ساخرة من زاوية فم الرجل المغطى بالشاربين واللحية ومعها خمس كلمات مباغتة:

- "أنا خريج كلية الفنون الجميلة".

ازداد الأمر غموضاً وتعقيداً بالنسبة لصهيب، فأمامه رجل رثّ الثياب، أشعث الشعر، ظاهره جاهل وباطنه مثقف!

أراد صهيب أن يتثبت من أن الرجل لا يهذي:

- "كنتَ تحدثني عن الفتاة اليابانية نوريكو"؟

- "لا شيء في قصتها يستحق الاهتمام سوى أنها هي السبب في بقائي هنا في هذه البقعة المقفرة من عمر الزمان".

ومن دون أن ينتظر الرجل سؤالاً آخر من صهيب أكمل:

- "كانت تجلس على هاتيك التلة" (وأشار باتجاه الجنوب إلى هضبة رأسها عبارة عن نتوء صخري يتسع لشخص واحد، ويحيط به مرج أخضر يتخلله زهور صفراء ليس لها رائحة، ومن تحتها خرجت خنفساء وهي تدحرج كرة من الروث بأرجلها الخلفية وتسوقها إلى التلة) .. ثم تابع: "نوريكو كانت تمارس اليوغا.. كانت أشبه بريشة حمام يحملها الهواء فوق بستان ورد، وكلما لامست الأرض حملها الهواء إلى الفضاء من جديد".

وضع الرجل العصا جانباً بعد أن اكتمل الرسم الذي صنعه على الأرض الندية، رسم جناحاً كبيراً كأنه جزء من ثور

أسطوري مجنح، ورسم خلفه شكلاً يمثل بوابة قصر. ثم نظر إلى صهيب مكملا:

"كانت نوريكو عقب كل جلسة يوغا، تُخرج من حقيبتها ورقة بيضاء، ثم تبدأ بالرسم، وأحياناً كانت تحضر معها مرسماً خشبياً تطويه وتحمله بيدها".

سرح الرجل بنظره الى البعيد، ثم عدّل من جلسته وقد انخفضت وتيرة صوته:

"أعجبتني هذه الطريقة في الرسم، جربتها لعدة مرات، وجدت أنها أكثر روحانية،وصفاء، فقررت أن أهجر المدينة وأسكن هنا، ولا أنزل إلى المدينة إلا في شهر نيسان من كل عام أقيم معرضاً في صالة "الخاني".. المدن أصبحت مثل قمقم ينحشر الناس بداخله ".

أشعلت الحكاية جمرةً من الفضول بداخل صهيب:

- "وما علاقة كل هذا بالسبع"؟

- "السبع يهيمن على هذه المنطقة، هي ملعبه إن شئت، وعندما شاهدني رجاله أقيم في هذا المكان، وضعوني فترة طويلة

تحت المراقبة، من دون أن أدري، ولما تأكد لهم بأنني مجرد فنان تشكيلي، طلبوا مني أن ألتقي السبع بناء على طلبه، فأخبرني يومها بقصة رأس التمثال، أو برأس الرجل الكبير، وسألني إن كنت على استعداد للعمل معه".

قاطعه صهيب مستغرباً:

- "العمل معه"؟

- "طلب مني السبع أن أرسم مخططات متخيلة لموقع المدينة المدفونة تحت هذه التلة، وذلك لمساعدة المنقبين في عملهم، وأحضرَ لي صوراً بالأقمار الصناعية للمنطقة، وخرائط قديمة، أستهدي بها، واستطعت التوصل إلى رسم تقريبي للموقع".

- "وهل الخرائط التي زودني بها السبع من صنعك؟ .. وأين تتوقع وجود الرأس"؟

ألقى الرجل نظرة فاحصة على الخرائط التي يحملها صهيب، وأكد له أنها من صنعه ثم تابع:

- "توقعاتي أن رأس التمثال موجود في هذا المكان" (ثم ضرب الأرض التي يقف عليها بعصاه للدلالة على المكان الذي يقصده) .. وأكمل: "أنت تحفر بالمكان الصحيح، لقد ارسلني السبع كي أدلك على هذه البقعة، فوجدتك قد اكتشفتها بنفسك، وكأنك خبير بالتنقيب".

- "تستطيع ان تقول ذلك، فقد مارست التنقيب كثيراً في مراهقتي، أنا من تل مرديخ ومنزل أهلي ليس بعيداً من هنا، وكنت قبل سنوات أستخرج أواني الفخار، وأحجاراً كريمة، لأبيعها خلسة للسياح، او لتجار يجوبون المنطقة يشترون ما نعثر عليه بأسعار زهيدة، وعرفت بعد لقائي بالسبع، أننا كنا مغبونين".

- "إذاً انت لا تحتاجني الآن"؟

- "لا ولكن اذا احتجت إليك أين أجدك يا سيد.."؟

رد الرجل وهو يهم بالنهوض متكئا على عصاه، ومشيراً إلى الجهة الغربية:

- "اسمي أسعد وصومعتي (ثم ابتسم) أقصد مرسمي على بعد ثمانية كيلو مترات من بيت المختار، تتجه غرباً انطلاقاً إذا وضعت ذاك الفرن على يمينك ".

بعد أن سار الرجل عدة خطوات استوقفه فضول صهيب من جديد:

- "لدي سؤال إذا لم يزعجك"

توقف الرجل وأدار فقط رأسه ناحية صهيب في حركة استفسار.

تابع صهيب:

- "لماذا ترتدي هذه الثياب"

استدار الرجل بكامل جسده نحو صهيب:

- "في البداية كان على سبيل التمويه، لكنني مع الأيام وجدتها أكثر ملاءمةً للفضاء الحرية. تحررت من المدينة ألا تريدني أن أتحرر من ثيابها أيضا"؟.

- "ولكنك لست حراً..أنت -بشكل من الأشكال- عبدٌ لرأس الرجل الكبير"

- "وأنت كذلك"..

قالها الرجل ومضى يغيب في المدى الأزرق البعيد.

****

خيـــوط الثـــروة

مر أسبوع آخر..الشمس هنا تطل برأسها من بين تـــلال السحب أولاً، قبل أن يبزغ كامل جسدها، وأحيانا تستطيع غيمـــة ربيعية هشة البياض أن تحجبها.!

كان النفق الذي حفره صهيب قد اصطدم بصخرة.. وهذا يعني أحد أمرين، إما أنه انتهى إلى طريق مـــسدود، وإمـــا أن الصخرة غطاء لتابوت حجري، وهو ما يبحث عنه.

توقف صهيب عن الحفر، عليه أن يكون أكثـــر حـــذراً ودقة، لأن أي خطأ قد يفقده الحلم الملايين التي هي ثمـــن رأس التمثال إن كان موجوداً هنا. رغم برودة الجو إلا أن دفقة سخونة مصحوبة برجفة عابرة باغتت جسد صهيب.. كانت هذه المرحلة من الحفر هي الأصعب إذ يتوجب استخدام أدوات صغيرة على شكل مكاشط وفرشاة كي لا يتسبب التنقيب القاسي بإتلاف قطعة أثرية محتملة.

شعر صهيب باضطراب شديد .. إذ يتوجب عليه هذه اللحظات أن يوازن بين شراهته التي بدأت تزداد للحصول على الدفائن، وبين أن تكون يده هادئة مثل أصابع كاهن يلوّح بخشوع لمريديه.

توقفت أصابع صهيب فجأة عن الحفر. بدت الصخرة وكأنها طرف تابوت حجري.انهارت الأتربة المحيطة بالصخرة البيضاء التي ظهرت عليها أجزاء من عفن وبقع سوداء، بانت فجوة أكبر، أخذ صهيب يوسعها بيديه المجردتين متوخياً الحذر من جحر ثعبان محتمل .. صار التراب ينهار أمام إصرار اليد المضطربة .. توقف صهيب ليضيء مصباحاً يدوياً انبعث منه ضوء شحيح لكنه يكفي لجعل العتمة الصماء رمادية، عندها أيقن صهيب بأن المدفن الذي أمامه شبيه تماما بمدفن الملك "إيبيط".

مدافن الملوك لها سمات خاصة يعرفها المنقبون عن الآثار. حتى الطريق إلى الآخرة فيه طبقية.. المهربون المحظوظون هم الذين يعثرون على مدفن ملكي، أو مدفن امرأة ثرية، فكلاهما يحتوي على غنيمة من الذهب والحلي.. يبدو أن ما يحدث فوق الأرض يحدث أيضاً تحتها.. الملوك هم الملوك ..

والنساء هن النساء .. حين نقل تمثال رمسيس في مصر من مكانه إلى مكان آخر، أقيم له موكب رسمي يليق بروح ملك .. ولكن ليس دائما يحصل ذلك، فهناك زعماء سُحلوا في الشوارع .. نهاية أي حاكم يختارها هو بنفسه!

مع الإصرار على الحفر باليدين العاريتين، اتسعت الفجوة أكبر .. وأصبحت تتسع لرجل يدخل من خلالها منحنيا .. بعض الشعوب في السابق، كانوا يتعمدون جعل مداخل مدافنهم منخفضة كي يضطر الداخل إليها أن ينحني إجلالاً للموتى:

"وطئ صهيب بحذر فوهة الظلام الرهيبة، التي ابتلعت حتى ضوء المصباح اليدوي. كان ثمة تابوت حجري على اليمين وآخر على اليسار وبينهما تابوت صغير يبدو أنه لطفل صغير، وحولها قطع فخارية بعضها سليم والآخر مكسر. أغطية التوابيت زُحْزِحت من مكانها، واضح أن أحدهم عبث بهذا المكان، لكن ثمة حبات من العقيق لا تزال في مكانها. تشير إلى احتمال أن الذين فتحوا المقبرة كانوا يبحثون عن رأس التمثال أيضا، وهم إما أنهم لم يفلحوا فتركوها، أو أن أمرهم اكتشف فأغلقوها بشكل عشوائي، وقد يعودون إليها في أي وقت.

كان المدفن على شكل كهف محفور بعناية .. في المقابر يصبح للصمت رائحة، وأي حركة مهما كان صغرها تغدو مضاعفةً.. للصمت دويّ ورهبة أيضا. ما الذي يمنع العظام المسجاة منذ مئات السنين من أن تتحرك فجأة؟!.. من الصعب أن تجد نفسك في مواجهة إنسان عظمي كان يوما ما مثلك.. والأكثر إحراجاً أن تجد نفسك أمام ملك بلا حراك، ملك كان يوماً ما يحرك العالم بخنصره.. بينما هو الآن بين يديك يمكنك أن تسحنه مثل كحل عتيق.

مهمة التنقيب عن رأس التمثال في هذا الكهف تبدو مثل مغامرة عجوز آفلُ عمره، يريد قلب حسناء مراهقة .. كاد المصباح اليدوي أن يسقط فجأة من يد صهيب حين أحس بحركة في زاوية المدفن، لكنه تماسك وسلط الضوء ناحية الصوت بسرعة ليكشف مصدر الحركة، فرأى ذيل جرذ يختفي فجأة في جحر عميق .. راح صهيب يتنفس بصعوبة بالغة، لان كمية الأوكسجين قد انخفضت، فخرج قليلاً إلى الخارج مستعيراً الهواء برئتيه، ثم عاد أكثر شجاعة هذه المرة. للمكان الفارغ رهبة أولى ما تلبث أن تزول تحت وطأة الإصرار..

التآلف مع الرهبة لا يزيلها بل يبقيها مشروع رعب جديد.. الرهبة لا تزول إلا بكسرها.

أراد صهيب التأكد من أن الجرذ لا يزال في جحره، فسلط الضوء مرة أخرى على الركن الذي خرج منه، فتنبه إلى أن الجُحر أكبر من أن يكون من صنع جرذ. كانت الفجوة هشة الأطراف. تفقد صهيب موطئ قدمه قبل أن يتقدم بالخطوة التالية .. ثم سار محنياً ظهره كجندي يزحف في معركة مُتَقياً وابلاً من الرصاص. بدت الأرض رخوة من تحته، تناهى إلى سمعه أصوات من الوهم لفحيح أفعى وطنين ذباب أزرق كبير .. استرجع في ذاكرته حكايات قديمة عن الكنوز المرصودة بالسحر، وعن اللعنات التي تطال غزاة المدافن..لكنه عاد وتذكر الثروة التي من الممكن أن يجلبها له رأس التمثال القابع في ما كان هنا، فهدأ روعه.

الجحر صار يتسع كلما اقترب منه ضوء المصباح وكذلك أيضا توسعت حدقتا الرعب في عينيه .. عندما لمعت في الظلام عينا الجرذ كأضواء سيارة قادمة في نفق،

واخذ يتراجع مرسلاً فحيحاً تحذيريا قبل أن يغوص في الظلام .. وهذا يعني أيضا أن الجحر عميق.

أدخل صهيب مقدمة المصباح في الجحر وحركه بشكل دائري في كل أرجاء الجحر، فاكتشف أن سقفه مرتفع بمقدار متر تقريباً، وهذا يؤكد شكوكه بأنه ليس من صنع الجرذ. كان باب الجحر الضيق لا يعكس حقيقة حجمه الواسع في الداخل، لذلك راح صهيب يوسع المدخل، بحذرٍ شديد .. لقد بدأ صدره يعلو ويهبط بسرعة كأنه يسابق خيول الوقت الهاربة في براري الزمان. بدأ التراب الواهن يستسلم ثم يتداعى أمام إلحاح كفي صهيب اللتين بدتا شرستين، يدفعهما فضول نحو الغموض المرتقب .. تراكم التراب أمام المدخل، ومع ذلك لم يستعن صهيب بمجرفة، صار يزيح التراب بيديه وينثره نحو الخلف من بين قدميه وهو مقرفص، كالجرذ الذي سكن النفق قبله. كلاهما كان يحفر لغرض متشابه، الجرذ من أجل الوصول إلى حياة فيها أمان معيشي، وصهيب من أجل الوصول إلى حياة فيها أمان مادي.

أصبح مدخل الجحر واسعاً بما يكفي لكشف ما بداخله، مد يده إلى الداخل يزيح التراب بسرعة كحفارة آلية.. ارتطمت أصابعه بشيء لزج ودافئ.. أحس بالخوف وتسارع نبضه بما يشبه صوت جهاز منزلي للجري..سحب يده بسرعة، ليرى تحتها جرذاناً مولودة للتو مغمضة العيون تشفّ الأحداق من تحتها، كانت تتلوى ببطء في حركة احتجاج فطرية على هذا المستعمر الذي لم يراع لا حرمة الأموات ولا حتى حرمة جيرانهم من الجرذان التي تعيش مسالمة في جحورها .. الإنسان عدو كل الكائنات الأخرى، لقد زج بها في حروب، وتسبب لها بالكوارث، وجفف عنها الأنهار، ولوث حولها البحار، وثقب حتى الفضاء..

جشع الثروة المنتظرة جمد النبض في عروق يده التي تحولت في تلك اللحظة إلى مجرفة معدنية مسارِبة الدفء.. باردة كمنجل موت .. لم يخجل أمام عيني قلبه اللائمتين، حين هدأ النبض في أجساد الجرذان الشفافة يصمت..كانت هي البروفة الأولى لموت الإحساس في داخل صهيب، لِمَا بعد الثروة .. أصبح التراب الذي أمامه الآن مزيجاً من موت حديث بدماء الجرذان وآخر قديم بأرواح الملوك .. الموت لا يختلف من كائن لآخر.

المواجهـــة

بوادر الثروة تلوح من عمق العتمة التي تلف المكان، بان نتوء من حجر بازلتي في الجحر، توقف صهيب عن الحفـر.. تجمدت عيناه كقطعتين من عقيق قديم، أزاح الجـرذان الميتـة، ودنت يده ببطء من الحجر، ثم راح ينفض عنه التراب بحـرص شديد وكأنه أب يمسح على رأس طفل عائـد مـن المدرسـة.. بدا الحجر الكروي وكأنه رأس تمثال مقلوب علـى وجهـه .. انتشله بعناية متناهية، كما لو كان صانع زجاج يخرج للتو مـن الفرن قطعة بلورية. أمسك الرأس وأداره باتجاهه .. إنه هـو.. هو الرأس نفسه الذي في الصورة.

أصبح هو والملك في مواجهة واحدة..أحـس بنظـرات التمثال الوقورة تستقر في منتصف عينيه، أشاح وجهـه خوفـاً. أحس بهلع شديد، من نظرات الملك الجامـدة والحـادة كنـصل التاريخ. حاول أن يخلق سبباً آخر لشعوره بالخوف: "مـاذا لـو أمسكتني شرطة الآثار الآن"؟.. لم يقنعه هذا السبب الـوهمي، لأنه بمجرد أن أعاد النظر في التمثال ارتجـف مـرة أخـرى، بل أصبحت النظرات أكثر وضوحا بعد أن تساقط التراب العالق

في أخاديد الرأس. كان الأنف شامخاً كصارية سفينة غازية. ثمة خط بين الحاجبين يرسم عبوساً ملكياً صارماً.

منذ ذلك اليوم أصيب صهيب بذعر شديد من رأس التمثال، وصار الخوف يطارده ويمشي وراءه من حي إلى آخر، يطل عليه كلما فتح نافذة، أو أوصد باباً، لم يشعر يوماً بخصوصيته، كان يشاركه هدأة الليل وقيلولة الظهيرة، إن فتح دفتراً أطل من بين السطور، وإن قرأ قصة كان هو الحكاية.. حتى أن صهيب خضع بعد سنوات لعلاج نفساني، ولكن دون جدوى. ظل يرتعد كلما انهمر مطرٌ خبأ خوفه تحت دثار السرير.. وكلما ومض البرق انغرست في صدره أنصال الضوء الحادة.

ذات خريف لا اخضرار فيه، استفاق صهيب على صدى صوت يدوي كتنينٍ عجوز في أرجاء الغرفة: "حسبك أنا، لا ملك لك سواي .. أنا خبزك المرّ، وأنا ثوب عيد أطفالك .. أنا حزن أيامك وأفراحها .. إن شئتُ أوقدتُ لك النار لتنير لك الطريق .. وإن شئتُ أطفأتها؛ فأنت في ظلام القبور".. ثم غاب الصوت فجأة كأنما الجدران لها بطون استردته إليها.

منذ تاريخ يمتد إلى ما قبل الميلاد،كان هذا الملك "الآرامي" يحكم بلاداً شاسعة الأطراف، لذلك فإن سطوته تلك لا تليق برأسه الممرغ بالتراب الآن.حمله صهيب بتؤدة ورفعه إلى أعلى .. سلط عليه ضوء المصباح بيد مرتجفة، ثم راح يحدثه وكأنه في حضرة عرشه حين كان يعتليه:

"سيدي الملك .. أعتذر من جلالتك لأنني اقتحمت عليك مملكتك .. لا بل مدفنك بهذه الطريقة اللصوصية التي لا تليق بك ولا برعية صالحة .. أعتذر لروحك الجليلة إن كنت أرقتها، لو كنتَ حياً، لما تجرأتُ للوصول حتى إلى عتبات ساحة قصرك .. سيدي الملك .. أنت الآن لست مجرد حجر في كف واحد من رعاياك .. أنت تاريخ عريق اكتشفوا جسدك منذ زمن بعيد، وظل رأسك ضائعاً إلى أن عثرت عليه أنا، أشعر الآن بزهوٍ كبير وقد وعدوني بثروة هائلة إن أنا وجدتك.. وها أنت الآن بوابة الثروة التي انفتحت علي.

سيدي، قبل أن أفرط بك وبهذه الفرصة النادرة للقائك لا بد أن أحكي لك ما يحصل .. لا بد أولا أن أبلغك بشعوري الآن بأنني وزيرك المقرب .. جلالتك وأنا وحدنا في هذه المملكة

.. امنحني سيدي صلاحية اتخاذ القرار، سأصلح من شان رعيتك .. هنالك يا سيدي أمور قد لا تعرفها .. فجدران قصرك سميكة، والنوافذ التي فيه تطل فقط على بساتين تحجب مـا وراءهـا .. هناك يا جلالة الملك خلف هذه البساتين جياع ينتظرون رغيـف الحياة .. هناك عربات يجرها البشر بدل الخيول .. وحقولٌ من الحنطة لا نعرف يا سيدي مصير غلالها، هذا أنا مثلاً يا سيدي، طالب جامعي وأضطر للعمل مهرب آثار كي أكمل دراستي..هل لدى جلالتك الوقت القليل من الوقت لتسمعني كي أحـدثك عـن الماء والقمح والحرية .. لا بد أن تفعل ذلك، لا بد ان تـسمعني لأنني أمثل الشعب،صحيح أنه لم يفوضني رسمياً، ولكن ما قلته لك، هو ما يدور في مجالسهم .. اسمعني يا سيدي قبل أن تنـوء بأوزارنا جميعاً".. ظل الملك صامتاً ينظر بعينين حجريتين.

سقط المصباح اليدوي على قدم صهيب، فاستفاق فجـأةً من شروده .. أحس كما لو انه كان في غيبوبـة، أو فـي حلـم مضى عليه زمان.

حمل صهيب الرأس بحذر مشوب بهلع، ثم دسه تحت ثيابه وخرج من النفق متلصصاً، وما أن جرحت شفرة الشمس بصره، حتى أغمض عينيه بسرعة كخفاشٍ خرج نهاراً من كهفه. تلفت في كل اتجاه، هو يعرف أن رجال السبع قد يحضرون في أي لحظة، لكن السبع لم يشدد الحراسة هذه المرة على عملية البحث عن رأس التمثال، كونه اعتبرها المهمة اليائسة، فقد أجرى قبل ذلك خمس محاولات وجميعها باءت بالفشل، لذلك فقد اعتبر أن رحلة صهيب كمثيلاتها، ليست أكثر من تحصيل حاصل.

تسلل صهيب إلى خيمته الصغيرة، وحين ألقى رأسه فوق الوسادة انهال التراب العالق فيه .. لكنه لم يعره اهتماما إلا عندما سقطت بضع حبات تراب في عينيه، فغسلهما برشقة ماء، ثم استلقى بلا حراك كجسد يشعر انه ميت رغم الحياة التي فيه.

رأس التمثال لم يعد يعني له ثروة فقد أحس بأنه يتاجر بسطوة قديمةٍ لرجل لا يستطيع الآن الدفاع عن ملكه.

قطع استرسال تفكيره شعوره بحرقة في عينيه من جراء التراب الذي دخل فيهما، فرك عينيه ثم اعتدل في جلسته.

فكر أن يعيد الرأس إلى مكانه ويغلق النفق الذي حفره، لكنه تراجع كونه سيعرض الرأس للسرقة من آخرين .. فكر أن يسلمه لدائرة الآثار والمتاحف، لكنه لم يكن معجباً بطريقة احتفائهم باللقى الأثرية. فنهض وقد أشرقت عيناه بفكرة غريبة. حمل رأس التمثال وسار به نحو الحصان،ثم دسّه بين فخذي الحصان، ولفّ حوله قطعة قماش ثم غطاها بسيرٍ جلدي ممتد من السرج نحو الخلف.

كاد توازن صهيب أن يختل حين سمع صوتاً من ورائه يقول له بما يشبه الهذيان:

- "هل وجدت الرأس"؟

التفت صهيب وكان قد أنهى للتو تثبيت الرأس جيداً بين فخذي الحصان، فوجد أمامه الفنان التشكيلي فردٌ بثباتٍ لم يتوقعه حتى هو في موقف كهذا:

- "لا لم أجده"

أطرق الرجل رأسه، وظل كذلك وهو يخاطب صهيب:

- **"أظن انك وجدته"..**

تماسك صهيب أكثر فالشجاعة هنا وحدها التي تمتد كحبل نجاة من هذه الكذبة:

- **"ما الذي يجعلك تظن أنني وجدته"**

- **"ثقتك الزائدة التي عكسها جوابك .. هناك أشخاص يمثلون الثقة ببراعة وهم يكذبون"..**

- **"أرجو أن تستخدم عبارة أفضل من الكذب .. يبدو أن وجودك وحدك هنا أفسد عباراتك الأنيقة"؟**

ابتسم الرجل ورفع رأسه لأول مرة منذ أن بدأ يحدث صهيب، ثم قال وهو يهمّ بالمغادرة دون أن ينتظر جواباً:

- **"لستُ متحمساً لأن يكون التمثال بين يدي السبع .. ربما سيجد مكانا يليق بعظمته أكثر .. لا تبعه .. إنه ملكٌ جدير بأن لا يكون سلعة من بقايا التاريخ".**

استوقفه صهيب بلهفة. كانت الفكرة البديلة قد اختمرت في ذهن صهيب:

- **"هل أنت جاد في ما تقول"؟**

عاد الرجل مقدار الخطوتين اللتين سارهما، ثم توقف هازاً رأسه علامة التأييد:

- **"إنني أجيد صنع النسكافيه بالحليب .. ما رأيك لو تناولته معي في مرسمي"..**

فوق تلة صغيرة تقع غرفة تبدو وكأنها نبتت في التراب كشجيرة شوك خرافية، وليس كبناء من أربعة جدران مكسوة بالجبس الأبيض ترك المطر النازل من مزراب حديدي عليه خطاً أسود غائراً. وبجانب الغرفة بنيت حجرة أصغر تضم الحمام والمطبخ ودورة المياه. وبعكس الغرفة التي فيها نافذتان على الجدارين الأيمن والأيسر، فإن الحجرة الصغيرة ليس فيها سوى كوةٍ صغيرة في أعلى الجدار، يحيط بها الدخان كجناح غراب مقيت.

مد أسعد يده إلى صدره وأخرج من تحت الجلابية مفتاحا حديدياً كبيراً كان مربوطاً إلى عنقه بخيط أخضر سميك، ثم صعد أربع درجات حجرية رُصفت فوق بعضها بشكل عشوائي، وأولجَ المفتاح في القفل، ثم أداره مرتين ودفع الباب بركبته..

تطاير الذباب من فوق جلد الحصان الذي كان عصبيا وهو يضرب بذيله هذه الحشرات المزعجة، بدا أيضا أنه متضايق من رأس التمثال الذي خبأه صهيب أسفل بطنه. فكان يرفس الهواء ويصهل بألم..

حين وضع صهيب رأس التمثال قرب فخذي الحصان، شعر بالألم النفسي، فيوما كان الملك يمتطي أجمل الأحصنة .. وكان سائس خيوله يمسك له اللجام ريثما يضع الملك قدمه في المهماز، قبل أن يستقر بزهوٍ، نافخا صدره ليُبرز الدرع النحاسي .. اليوم ليس هناك سوى رأس من حجر صحيح أنه يساوي الملايين، لكنه في مفهوم الواقع .. هو حجر..

التفت أسعد إلى صهيب الذي كان لا يزال واقفاً على بعد أمتار أسفل الغرفة، فأشار عليه بأن يربط الحصان إلى شجرة الزيتون الوحيدة القريبة من الغرفة، راح الحصان يهمهم بألم،

حتى وهو يحني رقبته لقضم الأعشاب التي تحته .. كانت يصمت لحظة مضغه للعشب، ثم يعود ليهمهم من جديد .. الشبع قادر على تخدير الألم بشكل مؤقت فقط .. المشكلة كانت كيف يتحرر من عذاباته.

كانت الغرفة في الداخل مزدحمة باللوحات بعضها منجز والآخر لا يزال اسكتشات .. وعلى الأرض إطارات خشبية مربعة ومستطيلة فوقها قماش أبيض ينتظر فكرة الرسام. تفوح في المكان رائحة زيت "التربنتين"، وعلبة غراء فارغة، ونشاء أبيض يؤسس به الرسامون عادة اللوحة قبل الرسم .. وقطع قماش بالية مصبوغة بألوان كثيرة،يمسح فيها الرسام فراشي الرسم، بأن يغمرها بكوب فيه سائل للتنظيف لتقضي ليلتها فيه.

- **"والدي كان يفعل الأمر نفسه ولكن مع طقم الأسنان"..**

قال صهيب؛ ثم ضحك ضحكة قصيرة وباهتة. بدا وكأنه طوال فترة مكوثه للبحث عن رأس التمثال قد نسي الضحك.

- **"أرجو وان لا تكون ضحكتك الأخيرة"..**

جاءت العبارة من الرسام أسعد، أشبه بنعقة بوم؛ بينما كان يكشط ألواناً جفت فوق سكين للرسم.. فبدا كما لو أنه يشحذ نصلها مما أثار ريبة صهيب الذي شعر بالرهبة وهو يتابع حركة أصابع الرسام الناشفة كقطع جلد مجففة تحت الشمس. تساءل في سره إن كان الرسام يُبيت له نية ما .. ثم ما لبث أن استبعد الفكرة حين انتبه إلى أن السكين غير ذات نصل حاد .. وقد صُنعت بما يكفي فقط لصنع ملامح الجمال.

كانت الفكرة التي كوّنها عن الفنانين التشكيليين غير مشجعة، فالفنان الحلبي لؤي كيالي مات محترقا في مرسمه، بينما مات الفنان الهولندي فان غوخ منتحرا في الحقل نفسه الذي رسمه بلوحة من قبل، وأسماها حقول الغربان .. كان هذا كل ما يعرفه عن الفن التشكيلي، رغم براعته في النحت الذي اكتسبه كهواية لا كثقافة.

بإحساسه المرهف أدرك الرسام بأنه تسبب بهلع لضيفه دون قصد،لكنه استغل هذا الهلع ليوضح لصهيب خطورة السبع كي يتاح له أن يأخذ حذره جيدا:

- "أقصد بأن لا تكون الضحكة الأخيرة؛ أن السبع لو عرف بأنك عثرت على رأس التمثال ولم تخبره فسوف يكون تصرفه غامضاً"..

- "هل لديك حل"؟..

سأل صهيب الرسام الذي رد بحيرة:

- "لا سوى أن تمكث عندي بضعة أيام ريثما نفكر بمخرج".

- "ولكن أنا لدي الحل"..

وضع الرسام سكين الرسم جانبا وفرك من تحت أظافره الألوان التي حُشيت فيها، ونهض ببطء نحو الشباك يفتحه كي تخرج من الغرفة رائحة زيت التربنتين:

- "كيـــف"؟

رد صهيب بكلمة حاسمة:

- "التزويـــر".

سبقت الدهشة أي عبارة كان من الممكن أن ينطق بها الرسام، وزاد في سكوته أن صهيبا لم يمنحه فرصة لأي إجابة:

- **"أنا أجيد تزوير الآثار بشكل متقن"**

استمرت الدهشة متربعة على فم الرسام المفتوح باتجاه اللحية التي بَهتَ لونها بفعل السنين، ولكنها تشبثت ببقايا لونها الكستنائي القديم دون أن يتمكن المشيب من استدراجها نحوه، وكمن يريد حسم الجولة بالضربة القاضية بعد أن فاز بالجولات الأولى بالنقاط، تابع صهيب:

كنت أقلد القطع الأثرية الصغيرة لصالح السبع من قبل، وبعض هذه القطع كانت عصية على الاكتشاف حتى من قبل السبع نفسه. كنت أعتقها بأن أدفنها في التراب، مع روث الحيوانات، ومواد أخرى تجعلها كانت تحت الثرى آلاف الأعوام.

- **"حسناً، أرى أن تقيم عندي هنا ريثما تنتهي من عمل النسخة المزورة، سيكون ذلك أنأى للشبهات".**

لم يعقب صهيب، وكأنه وافق عليها ضمنياً:

- **"احتاج من أدوات للعمل مثل مثقب طبيب أسنان، وأزاميل بقياسات مختلفة".**

- "سأنزل إلى حلب لشرائها لك".

تلقّى من عيني صهيب نظرةً ملؤها الحرج، فبثّ في نفسه جملة مُطمئنة:

- "البيت بيتك..أقصد الغرفة غرفتك خذ راحتك وسأزودك ببعض الطعام ريثما أعود".

- "ولكنني أفكر بزيارة أهلي والمكوث عندهم ريثما تعود".

- "لا أنصح بذلك..كما أنني لن أتأخر"..

أطلق صهيب نظرة بمثابة حاجز للتوقف، أحس بها الرسام فسأله:

- "مابك"؟

- "أنا مستغرب من كل ما تفعله .. فأنت أحد رجالات السبع، وتعمل لصالحه، فلماذا تقف هذا الموقف. لماذا لا تريد لهذه الرأس أن تصل إلى السبع".

- "العمل مع السبع وظيفتي، ورأس التمثال هوايتي، وتقدر أن تقول أنني .. في الأولى أتصرف كموظف، وفي الثانية كفنان".

أدار الرسام قبضة الباب، فاستوقفه صهيب مرة أخرى بذهول:

- "هل ستسافر بهذه الثياب"؟!

زمَّ الرسام شفتيه كمن لسعه شراب بارد في أسنانه:

- "كدت أنسى"..

****

تكاد الحافلة القديمة التي تقل الرسام أسعد من تل مرديخ إلى حلب، تنوء بأحمالها من القرويين بثيابهم الثقيلة، وبأقفاص الدجاج وسلال البيض..كانت الحافلة تتوقف كثيرا على الطريق إما لتَحمل راكباً جديداً أو لتُنزل آخر.

أسواق حلب في الصباح، تبدو مثل شعرٍ أشعث لم يُمشّط منذ عام .. لا توجد زاوية في الشارع الحلبي إلا واستُغلّت كنقطة

تجارية. الحلبيون أناس عمليون ولكن برومانسية، فهم ينهكون أجسادهم صباحا في العمل، ويرضونها ليلا بالسهر.

أودع الرسام اسعد الأدوات التي اشتراها في غرفة استأجرها في فندق متواضع أكثر زبائنه من فتياتٍ يعملن طوال الليل. سلم المفتاح المعدني الثقيل لموظف الاستقبال، وخرج متوجهاً إلى مقهى القصر حيث يجلس السبع.

يحسب أسعد حساباً كبيرا للسبع، هو لا يحبه لكن يخشاه. في بداية عمله معه، تعمد السبع أن يرسل إليه رسالة تخويف غير مباشرة، فبعث إليه من يحكي له أنواع العقاب التي يُلحقها بمن يخدعه، أو يحاول تهريب قطعة آثار واحدة من دون علمه، حتى ولو كان ختما أسطوانيا دسّه يوما عامل في جيبه، وعندما اكتشف السبع أمره، حفر له خندقا في الأرض الحمراء، ثم دفن جسده كله إلا رأسه، وتركه يوما كاملا في العراء وقبل أن يغادره، قال له: "هذه لعبة الروليت على طريقتي، فأنت وحظك .. إن مر عليك الذئاب، فسوف تشكرنا ، وإن نجوت فلن تعيد خطأك مرة أخرى".

اجتاز أسعد المفرق بصعوبة من كثرة السيارات، وحين وصل إلى الرصيف المقابل، قرر أن يلتف إلى مقهى القصر عن طريق الفندق السياحي. كثير من الأدباء أيضا والفنانين التشكيليين يجلسون في مقهى الفندق المطل على الشارع من زاويتين، واحدة منها تطل على ساحة سعدالله الجابري الفسيحة والتي ينتهي طرفها بمبنى البريد، وفيها تمثال الشهداء للنحات عبدالرحمن موقت.

لوح بالسلام لمجموعة من أصدقائه لم يستطع بهذه العجالة تحديد ملامحهم جميعا، لمحه النادل جمال فأشار إليه بالدخول، لكن أسعد حرك يده معتذرا بإشارة إلى معصمه – رغم انه خالٍ من الساعة– بأن لا وقت لديه.

انعطف أسعد إلى اليمين، وسار بضعة أمتار، فأصبح المقهى على يمينه. كانت عينا السبع واسعتين إلى الحد الذي يظنّ المرء أنه ينظر في أكثر من اتجاه في وقت واحد.. كانت نظراته تحاصر المكان وتحيط بالفراغ كله حبيس عينيه الصارمتين.

على الرغم من الحزم والصرامة والقسوة التي يتسم بها السبع، إلا أنه يجيد تماماً بروتوكول استقبال الضيوف والتحدث إليهم بلباقة لافتة. فهو يهبُّ واقفا لمصافحة ضيفه أيا كان سنه أو مستواه الاجتماعي، ولا يجلس قبل ضيفه، وإن تحدث أنصت إليه باهتمام. من عادته وهو جالس أنه يشبك أصابع يديه، ويضع كفيه هكذا أسفل بطنه وكأنه يحملها، ويركز نظره جيدا في وجه محدثه، وكأنه مثبت بمسامير دُقت في الهواء، وإذا كان أمامه اثنين، واضطر لأن ينقِّل نظراته بينهما، فهو يلتفت نصف التفاتة ثقيلة.

بدا وكأنه تفاجأ من مجيء أسعد إلى حلب، فمنذ مدة طويلة قرر السبع أن يرفع الرقابة عن تحركاته، بعد أن اطمأن تماما إلى أن لا علاقة له إلا بالرسم. لذلك استفاد أسعد من ذلك حين قرر أن يدعو صهيب إلى غرفته لتزوير رأس التمثال.

انتظر السبع أسعد حتى استقر على كرسيه ثم جلس بعده. "ابتسامته لا تعني وداعته"..حدَّثَ أسعد نفسه في سره، ثم حاول أن يستفيد من مقدرته في الرسم على جعل ملامح وجهه هادئة ليخفي اضطرابه الذي بدأ يتشكل بداخله.

السنون عودت السبع أن لا يثق بأحد،لذلك فهو لديه مستويات من المعاونين، كل منهم يعرف جزءاً من أي موضوع، ولا أحد عنده يعرف كل شيء.

على صهيب أن يحكي من نفسه أسباب مجيئه إلى حلب .. هكذا دلت نظرة السبع المستفسرة بصمت. فنطق اسعد من فوره"

- **"احتجت إلى بعض الألوان وأدوات الرسم فجئت لشرائها".. بذل أسعد جهدا نفسياً وتحفز بقوة كي يتحكم بعضلات وجهه، كل هذا من أجل أن ينطق بهذا الجملة.**

الوجه الآخر للسبع أنه كريم، لذلك استل من جيبه أربع ورقات نقدية، كل واحدة منها بخمسمائة ليرة وناولها أسعد:

- **"إبداعك يهمني".. قالها السبع بينما شعر أسعد بوطأة الخيانة حتى على من يستحقها.**

- **"ما أخبار صهيب"؟..سأل السبع أسعد فرد متعثراً صوته هذه المرة بمرارة الخديعة:**

- "أكيد حضرتك تعرف أخباره أكثر مني". ثم تبسم باصفرار يعلو ضميره.

- "هل هو مرتاح عندك في الغرفة"؟

- "ألم أقل انك تعرف أكثر مني".

- "ما الذي يفعله عندك"؟

- "لقد شعر بشيء من التعب ويبدو أن رطوبة الأرض أثرت في جسمه فاستضفته لبضعة أيام ريثما يتعافى"..

ظل وجه السبع جامداً، بينما تحركت عيناه وحدهما نزولاً باتجاه شفتي الرسام، لترصد أية ارتعاشة كذب محتملة، كما لو أخضعه لجهاز كشف الكذب، ثم سأله:

- "كان من الأولى في هذه الحالة أن يذهب إلى أهله فهم يعيشون في المنطقة نفسها"..!

مرة أخرى حشد أسعد خبرته في الفن التشكيلي، فرسم ملامح الحياد على وجهه، وكان قد تنبه إلى نظرات السبع الاستجوابية:

- "غرفتي أقرب، ثم أنا الذي دعوته..لقد دار بيننا نقاش فوجدت أنه مثقف فأحببت أن تصبح بيننا صداقة".

- "حسنا وماذا عن رأس التمثال"؟

هذه المرة بدا ضبط النفس أكثر صعوبة، رغم أن أسعد كان يتوقع السؤال، إلا أنه عندما وجد نفسه في مواجهته لم يستطع أن يسيطر على ارتجافة حاجبيه سوى بالتفاتة مباغتة وعصبية إلى النادل الذي كان يمر بالقرب منهما:

- "أبا الخير، أين الشاي"؟..

كان أبو الخير رجلا ودودا، يبدو مثل قبطان سفينة متقاعد بشاربيه الأبيضين، فتبسم مستغرباً:

- "ولكنك لم تطلب شاياً"!

رفع السبع عينيه بإشارة تعني لأبي الخير: "امتثلْ للأمر"، ثم عاد فحرك عينيه باتجاه أسعد، مثل رادار يمسح الأفق، ومن دون أن يمهد للعودة إلى السؤال شدَّد على الجملة:

- "وماذا عن رأس التمثال"؟

لملم أسعد أشلاء أحاسيسه التي تبعثرت:

- "يبدو أنه لم يجده"..

- "تقول يبدو؟!..كيف؟..إما أن يكون وجده أو لم يجده"

- "نعم بالتأكيد لم يجده وإلا كان اخبرني، أو على الأقل لكان قرر العودة إليكم".

رد السبع مرتاباً:

- "هل استشعرت فيه الصدق أم المراوغة"؟

كان النادل أبو الخير قد أحضر الشاي ممتعضاً من أسلوب أسعد. وضع كأس الشاي بعصبية فانسكبت بضع قطرات في الصحن الصغير.

أحس أسعد وكأنه يدلي بشهادة زور في المحكمة:

- "نعم إنه صادق".

أراد السبع أن يُذكِّر أسعد بطريقته في العقاب لمن يحتال عليه،فقال وهو يضغط على سيجاره السميك قبل أن يشعله، وظل محدقاً في السيجار وكأنه يحدثه:

- "رحمة الله على العامل خلف، هل تذكره، لقد حفر في الموقع من دون علمنا،.. إيه رحمه الله". (ثم هز رأسه بخشوع ليس فيه).

****

الطريق من مقهى القصر إلى باب جنين، حيث مركز انطلاق الحافلات، مزدحم بكل أشكال الحياة.. يحب أسعد أن يذهب إلى تلك المنطقة عن طريق فندق بارون فالمتحف... المشي في شوارع حلب يوحي إليك دائما بأن المدينة كلها حبيبتك التي تسير بجانبك، فتبطئ من خطوك كي لا ينتهي معها المشوار سريعاً.

تذكّر أسعد الأيام التي كانت تسير فيها مواكب السيارات الكبيرة المزينة بأشكال وتصاميم من القطن، كانت تتبختر في الشارع كعارضات أزياء بثياب محتشمة، في مهرجان سنوي للقطن تقيمه المدينة. كانت السيارات تمشي ببطء وبهدوء جنائزي لا يتناسب وفرحة مهرجان.

الرصيف الذي تقف عنده الحافلة المتجهة إلى تل مرديخ داكن بسبب الزيوت. وقف رجلٌ نحيل تكاد شفتاه تتوءان بحمل سيجارته، ينادي على الركاب بملء شدقيه، استغرب أسعد، كيف لهذا الجسد الضئيل أن يصدر عنه كل هذا الصوت الحاد:

- "راكب واحد إلى التل..راكب واحد"..

حث أسعد خطاه ليكون هو هذا الراكب، لكنه اكتشف أن نصف الحافلة فارغة، فالتفت إلى الدلال مؤنباً:

- "كيف تقول راكبٌ واحدٌ"؟

اعتاد الدّلال أن يمتص نقمة الركاب بعد كل كذبة من هذا النوع بابتسامة واسعة تظهر فيها أسنانه السوداء، ما أن يراها الراكب حتى تتطفئ جمرة غضبه .. تبدو الابتسامة وهي خارجة من فمه الداكن وكأنها حصلت على الحرية. ولكنها ما تلبث أن تعود لسجنها بعد أن يسحبها صاحبها مع شهقة يبتلع فيها دخان سيجارته، ثم يطلق سحابة الدخان من أنفه، لتبقى الابتسامة في سجنها. ثم اقترب من أسعد مداعباً بلهجة حلبية عميقة:

- "إشبك خاي.. دي بقى طول بالك علينا.. ابن أخوي بدنا نعيش"

ثم يتركه عائداً إلى مصيدته من جديد":

- "راكب واحد..بس واحد"..

الحافلة القديمة يشخر صوتها كخروج الروح من جسد ثور ذبيح .. تعود إلى الوراء مثقلة بأحمالها .. الحافلات القديمة لها أنين حزين.

اعتدلت الحافلة على الطريق العام باتجاه تل مرديخ .. كانت حلب قد بدأت تتوارى خلف المسافات.. والمنازل الحجرية أصبحت على البعد، سرابا، وأشجار السرو المزروعة على جانبي الطريق، تتطاول كأعناق الإبل في قافلة يُبكي صوتُ الحادي فيها أغلظ القلوب.

لم تستطع حشرجة الحافلة أن تؤثر في عذوبة صوت صباح فخري: "اسق العطاش" .. ارتفع الصوت بأمرٍ من سبابة وإبهام السائق الذي أدار بهما مفتاح الصوت منتشيا، رفع يده نحو سقف الحافلة، ليجر حبلاً متدلياً فانطلق منه صوت بوق

خشن .. وحتى هذا لم يستطع أن يمنع عذوبة الصوت .. القبح لا يلغي الجمال، والأشياء الرقيقة لها قوتها السحرية أيضا .. إن أصغر رمش صامت في عيني حسناء، قادر على أن يسترعي انتباه شارع بكل ما فيه من صخب.

غابت حلب تماماً الآن .. لا شيء سوى ليلٍ أصمٍ، وهدير محرك عجوز .. وركاب متعبين .. وحلم يحمله أسعد إلى صهيب في كيس ورقي .. أيضاً أصم.

ساد صمت داخلي مباغت في داخل أسعد، لم تكن لديه الرغبة في الكلام مع جاره الشاب في المقعد، الذي حاول أن يفتح معه حواراً عن رواية "السرطان" التي كان يقرؤها للكاتب نهاد سيريس، لقد رافقه شعور الصمت منذ خروجه من حلب، وتصاعد في داخله حين نزل عند مفرق الطريق المؤدي إلى غرفته، حيث الوحشة تلف الدروب، وأعواد الزرع كأنها أظافر جنيات الطريق .. فكّر أن يصرخ ليطرد الرعب الذي سكنه .. لم يجرؤ .. فآثر السكوت. الصمت هو أشجع رأي للخائفين.

****

الـــرأس المـــزوَّر

في الغرفة الصغيرة، التقت وجهاً لوجه نظرات تحدٍ من صهيب مع قطعة حجر صماء. مرر إزميلاً حديدياً مدبب الرأس ليحدد مكان العينين، والشفتين، أشار بخط صغير إلـــى المكـــان الذي سينبت فيه الأنف الصارم أحس وهـــو يغـــرز الإزميـــل كما لو أن دما سيتدفق من الحجر. أكملَ النحت، وكأنه يجـــري عملية جراحية لوجهٍ صارم فيحوله إلى إحساس نابض.

حياتنا كتلة صماء .. منا من ينحتها ضاحكة .. ومنهـــا من ينحتها كئيبة .. ومنا مَن لا يتدخل في نحتها، يترك للآخرين مهمة تحديد الملامح. ساورت صهيب هذه الأفكار حين وضـــع رأس التمثال الأصلي على يمينه، ثم أمـــسك الحجـــر المـــزور براحته اليسرى، بالرفق نفسه الذي يتلقف به الطبيب رأس الجنين لحظة نزوله إلى الحياة.. ثم راح يُنقِّل عينيه بدقةِ ميزان ذهـــبٍ بين الرأس الأصلي والحجر المزور.

- "يا للشبه العجيب"..

صرخ الرسام أسعد مندهشاً بعد ما بدأت ملامح الوجه تتفسر تماماً.

شهرٌ وأربعة أيام وسبع ساعات،حسبها صهيب بالدقيقة، وهو يضع الرأس الحجري على الطاولة بعد إنجازه، تأرجح الرأس يميناً ويساراً .. بدا وهو يتحرك كما لو أنه حي، ثم استقر على قفاه كما لو كان نائما وعيناه مفتوحتان، ربما هكذا ينام الملوك في الواقع .. قال صهيب لأسعد مبتسماً.

تصعب فكرة الموت على الملوك أكثر من العامة، تبدو قاسية حين يتذكرونها، لأن خسارتهم أكثر فداحةً، فالعامة لا يتركون وراءهم عرشاً، ولا يندمون على رعيةٍ كانوا يحكمونها بطرف إصبعهم الصغير .. البسطاء يموتون مثلما يولدون، حياتهم فيها اليسير من الضحك والكثير من الأحزان .. لذلك فهم لا يشعرون بغربة في القبور.

همس صهيب لصديقه من جديد:

- "بإمكانك أن تصنع تاريخاً مزوراً بقليل من الكذب الجريء، وسوف يمتد تأثير هذه الكذبة إلى الأجيال بعد أن يصبح لها

أتباع يروجون لها على أنها حقيقة ويدافعون عنها أكثر من الذي كذبها".

- "لو تَبارَز محاربان على قصة لا احد يعرفها، ثم قتل أحدهما الآخر، فإن نصف الحقيقة ستذهب مع المقتول".

تابع صهيب كلامه وهو يعدُ الرأس للدفن إيذانا بتعتيقه ليبدو وكأنه قديم.ثم أكمل:

- "سأبيعه بنفسي بعيداً عن السبع".

جفَلَ أسعد كحصان باغتته أفعى:

- "أنت تغامر برأسك لا برأس التمثال"!

- "لا أحب النجاح الباهت".

- "وماذا عن الرأس الأصلي"؟

سأله أسعد وهو يشد قطعة قماش بيضاء على إطار خشبي ليجهزها للرسم.

ردَّ صهيب وهو يلملم أغراضه البسيطة:

- "له مكان يليق به...ستعرف لاحقاً".

المسافة بين غرفة الرسام ومنزل أهل صهيب ليست طويلة، ولكنها وعرة جدا، قطعها صهيب يرافقه حصانه المتعب وألمه الذي بدأ يطعن مفاصله .. كان يحس بالوجع يسري زاحفاً، من مفصل إلى آخر من مفاصل جسمه.

تنبه صهيب إلى رجل يتبعه على البعد، كان يقود دراجة هوائية، ويسير على الخط نفسه لكنه يصطنع النظر في اتجاه آخر.

كان الرجل ضئيل الجسم محدودب الظهر يفتح ذراعيه فاسحاً للهواء أن ينفخ سترته المطرية البنية لتبدو كمظلة يجرها مظلي وراءه بعد هبوطه إلى الأرض. فجأة انحشر طرف بنطاله البني العريض جدا من الأسفل في جنزير الدراجة ليعلكه الدولاب المعدني الصغير بمسنناته، فانقلبت براكبها على جنبها الأيمن، فهوى معها فوق مساحة مليئة بالزهور الصغيرة .. اقترب منه صهيب، وأرجع الرجل الدولاب المسنن عكس اتجاهه كي يتمكن من تخليص البنطال الذي انغرزت فيه المسننات؛ مخلفةً عدة ثقوب. ثم نهض الرجل، ومضى غير آبه بالزهور التي هُرست تحته.

تذكّر صهيب ما قاله له أسعد، بأن عيون السبع في كل مكان .. لذلك أحس بخطورة الموقف الذي هو فيه، لكنه مع ذلك تصرّف بشكل طبيعي، تماسك بهدوء وهو يربط الحصان إلى سور منزل أهله، سار بخطوات ثقيلة، بل لأن وخز آلام العظام كان يشتد عليه.

اضطرت أمه العجوز أن تضيق عينيها بشدة كي تتمكن من تفسير وجهه الزائر، وحين عرفته تدفق حنانها من قلبها إلى حضنها كسيل جارف.

المنزل الذي ولد فيه صهيب في تل مرديخ، مبني على الطراز العربي القديم، فما أن تتجاوز الباب حتى تمرُّ بدهليز ضيق جدا، سقفه على شكل قبة مستطيلة وهو يفضي إلى باحة كبيرة في منتصفها حوض زراعي مربع فيه شجرة زيتون واحدة، وتحيط بها أعشاب لم تعد تقوى والدته على تشذيبها، لذلك نبتت بعشوائية كلوحة تجريدية للفنان بول كلي.

على اليمين توجد غرفة شكلها غريب. يوماً ما قال له والده بأن جده استخدمها كمخزن سري أيام الفرنسيين، ولكن صهيب استغرب بعد دخوله الغرفة بأنها مكشوفة

ولا تصلح كمخزن سري، فضحك الوالد كمن يستصغر شأن ابنه الجاهل، وسحبه من يده نحو الأريكة القابعة في زاوية الغرفة، ثم انحنى ليسحبها بمفرده رغم ثقلها، وحين هبَّ صهيب ليساعده نهره بصوت ضيِّق خارج من بين أسنانه التي كان أطبقها بقوة ليستجمع عزمه.

تكشفت الأرضية من تحت الأريكة عن غطاء خشبي مربع، له حلقة من حديد، كان الغطاء ثقيلاً أيضا، ولم يشأ الوالد أن يعترف بعجزه عن إكمال المهمة، فادعى بأنه يريد أن يكتشف صهيب المكان بنفسه: "ارفع الغطاء يا بني، يجب أن تعرف المخبأ بنفسك".

انحنى صهيب يومها باندفاع يتناسب وسنوات مراهقته المُغامرة، ثم التقط الحلقة الحديدية بيد واحدة، بينما أسند اليد الأخرى إلى خصره، ثم همَّ بسحب الغطاء، لكن والده نصحه باستخدام اليد الثانية لأن الغطاء ثقيل. انكشف المشهد عن دهليز مظلم .. لا شيء فيه سوى الوحشة والخواء .. تراجع صهيب خطوتين خشية أن يظهر له شيء من عتمة المجهول .. الظلام يخبئ عدوا محتملاً .. تماماً كما القلوب المظلمة. في ذاك الوقت

من سنوات مراهقته، اكتشف صهيب هذا السر، ولكنه لم يكن بحاجة إليه، أما الآن فهو بالنسبة له بداية حياة، ونهاية أخرى.

حل المساء صامتاً وموحشاً في البيت الكبير الذي لم يبق أحد من أهله يسكن فيه سوى والده المقعد من الشيخوخة؛ ووالدته التي ادَّخرت في جسدها القليل من القوة لأيام كهذه .. زوجها والدجاجات السبع مع الديكين، هو كل ما ظل لها من كائنات حية في المنزل، لذلك فهم ينامون معاً ويستيقظون معاً، ويتشاركون حتى الطعام الذي تطبخه الأم.

مشى صهيب بخطوات لصٍ حذر، وعندما مر بجانب قن الدجاج استفاقت دجاجة كانت تخرج رأسها من الشبك، وأصدرت أصواتاً متلاحقة، ثم سحبت رأسها إلى الداخل فتنبهت بقية الطيور، ونهضت من رقدتها. تفقدت الدجاجة البيض الدافئ من تحتها، وداعبتها بمنقارها قليلا قبل أن تغمض عينيها مرة أخرى ليرتمي رأسها على جانبها من التعب، كمسافر في حافلة قديمة.

النوم له فوائد إنسانية أيضا، فإذا كان الإنسان يُلحق كل هذا الدمار بالبشرية؛ بأقل من نصف يوم يعيشه مستيقظاً، فكيف إذا استيقظ اليوم بأكمله؟!

تحسس صهيب رأس التمثال الحقيقي الذي لفه بقطعة قماش، ثم أحاط القماش بجدار طيني أتبعه بطبقة من الإسمنت، وتوجه به نحو السرداب السري، وحين وصل عند الفوهة المغطاة، تذكر نصيحة والده القديمة، فرفع الغطاء بكلتا يديه، أحس بأنه أكثر قوة الآن من المرة التي رفع فيها الغطاء في طفولته. ركن الرأس بهدوء جانبا، وأخرج مصباحاً يدوياً من جيبه، ثم ضغط على زر أحمر في منتصفه، فانبعثت منه حزمة ضوء بدت وكأنها كانت حبيسة فتحررت .. سلّط الضوء داخل البئر، فظهرت ثغرات على الجانبين تستخدم دَرجاً، تحسسها أولاً بقدمه، ثم نزل درجتين، وحين تأكد من أنه في أمان استدار ليأخذ الرأس ثم أكمل نزوله منزلقا في الظلام إلا من حزمة الضوء التي كانت تريه موطئ قدمه.

كشف ضوء المصباح عن دهليز جانبي مدلهم، لدرجة أن حزمة الضوء لم تكن تكفي لإنارة الفوهة بكاملها. كان الدهليز يكفي لشخص يدخل زاحفاً. لم يكن صهيب يحتاج لأن يمضي إلى العمق، فاكتفى بوضع رأس التمثال على امتداد ذراعه فقط، ثم عاد صاعداً، وحين أمسك بحافة البئر كي ينهض بجسده إلى

الأعلى، انزلقت يده بسبب فعل الأرضة بالحلقة الخشبية التي كانت تحيط بفم البئر من الداخل، وكاد أن يسقط لولا أن أغاثته اليد الأخرى التي أمسك بها جزءا أكثر صلابة من الحافة.

حين حكى هذه الحادثة لصديقه عادل بعد سنوات مديدة، رد عليه بأن: "هذه لعنة الملوك".. من النادر أن يضحك صهيب بصوت عالٍ، لكن فعلها هذه المرة وهو يرد عليه: "يا اخي الملوك أذكياء يحمون أنفسهم حتى بعد موتهم".

****

هذا المكان.. ذاك الحنين

الشارع الممتد من خاصرة الحديقة العامة الجنوبية الى "العزيزية" بدا عند المساء نشيطاً كما لو أنك قرّبت فانوساً من سرب فراشات.

كان عادل على موعد مع صهيب عند الساعة السابعة مساء، في مطعم "الشلال. حاول صهيب أن يقنع عادل بأن يكون اللقاء في قصره بالشهباء، لكن عادل أصرّ على أن يكون اللقاء في مطعم "الشلال":

- "أتذكرُ يا صهيب قبل عشرين عاماً كنا لا نملك ثمن فنجان القهوة هنا".

ابتسم صهيب وهو ينظر الى عادل الذي يشبهه في كثير من قسماته:

- "طبعاً أذكر، كنتَ حين تصلك نقود من أهلك، تأتي إلى هنا مرة واحدة في الشهر، وكنتَ تختار يوم الأحد تحديداً".

اضطرب فنجان القهوة بيد عادل حتى فاض البن على أطراف الفنجان، ولم يمهله صديقه صهيب حتى يهدأ فشاكسه:

- "أما زالتْ تشغل أوراق دفترك"؟

أرجعَ عادل الفنجان إلى مطرحه على الطاولة كي لا يفضح ارتباكه وشرد بعينيه إلى نقطة في فضاء الروح:

- "يمرني طيفها بين الوقت والآخر، يختار لحظات معينة لا دخل لي فيها .. ومن جهتي لا أنهره".

- "ولكن لماذا كنت تختار يوم الأحد"؟

- "الفتيات اللواتي يخرجن من صلاة يوم الأحد في كنيسة العزيزية، يذكرنني بها عندما كانت تخرج من كنيسة "الكبوشية" في دير الزور".

كان كثيرا ما يحصل له ذلك، عندما يفكر برولا، التي أحبها في سنوات عمره الأولى، وشغلت حيزا من روحه، كان يتساءل في سره عن نسبة الخيال في الحب.. أحيانا نتخيل في الحب ما ليس فيه.

حتى عندما تزوج، ظلت رولا تمرغ ذاكرته، ولكن كسحابة، كان يتعمد أن لا تمكث أكثر من دقائق، احتراما لزوجته. همس لصهيب: "كثير من الأزواج له زوجتان، واحدة

في بيته والأخرى في مخيلته".. لكن رولا كانت بالنسبة له حالة خاصة لها رومانسية الحب، وواقعية الزواج. إنها الآن مجـرد خيال عنيد.

صهيب لم يعش قصة حب في حياته، حتى زوجته، التي لا يستغني عنها،فإنه يتعامل معها وظيفياً، ولا ينقص شيئا مـن واجبات هذه الوظيفة. ولكنه في صوان قلبه يشعر بحاجته إلـى لحظات رومانسية، ولأنه لا يجيد صنعها، فهـو يـستمدها مـن صديقه عادل، ولهذا السبب فهو يحتفظ بدفتره القديم. ولذلك أيضا فهو يحرض شاعرية عادل إزاء رولا، كلما التقيا:

- **"ما الذي تذكر منها الآن يا عادل"؟**

أحس عادل في تلك اللحظة كما لو أنه كيس مملوء بماء الذكريات لامَسه دبوسٌ شرير:

- **"ضحكتها بريئة كقطعة نقود سقطت من القمر فوق درج من المرمر، فالتقطها طفل ووضعها على حافة فمه قبل أن تنهره أمه فيهرب بها".**

رولا ليست فائقة الجمال، لكنها عظيمة الجاذبية. شعرها أسود ينساب بحلم قاتم، كآخر ليلة في حياة حبيبين..

تزدحم أهدابها بكثافة حتى تظنها على البعد كحلاً عربيا تهيأت لفارس انتصر في غزوة.

يتوهج بياض وجهها ويشكل نقيضاً غير ممل مع سواد الشعر، يبدوان كأنهما عاشقان متخاصمان يتمنعان اللقاء.

حين تتحدث تميل برأسها جهة اليمين، فيرتاح شعرها على الكتف لبعض الوقت، لكنها ما تلبث أن تتبعه مرة أخرى بالتفاتة إلى الجهة اليسرى. كثيرا ما كانت تصمت تاركة الحديث لعينيها السوداوين أن تنطقا بوقارٍ راهبةٍ تلقي موعظة. يتلكأ حرف الراء عند حدود شفتيها، فتستعيض عنه بلكنة فارهة من حرف الغين الأرستقراطية.. مشيتها تشبه حركة أصابع عازف على مفاتيح البيانو. حين تقبل من البعد تخالها فرساً تكرّ على مدينة قلبك المحصنة.. إذا التفتت إليك فجأة تتدفق في التفاتتها موجة قادرة على قلب قارب كبير في إبحاره .. جلوسها على عكس مشيتها.. هادئة انسيابية، كما لو أنك ألقيت حبة عسل في زجاجة مملوءة بزيت زيتون فاقع الاصفرار.

- "ولماذا لم تتزوجها"؟..سأله صهيب وهو يومي إلى النادل بإشارة من إصبعيه السبابة والإبهام على شكل فنجان قهوة:

- "أمها كانت متشددة جدا..رغم أن المألوف في دير الزور، أن كثيراً من المسلمين تزوجوا من مسيحيات"

- "تعايش الأديان كحالة اجتماعية كان في السابق أفضل منه اليوم".

- "الديانات في كل العالم قابلة للتعايش، السياسات هي التي تفسدها ".

- "ليست المشكلة في ان يتدين السياسيون، بل المشكلة أن يتسيس المتدينون".

- "المفكر صمونيل هنتنغتون أرعب العالم بنظريته عن صراع الحضارات".

- "هنتنغتون لم يأت بجديد،هو وضع احتمالات مستقبلية على أساس معطيات تاريخية".

- "قرأت بأن هنتغتون وضع نظريته معتمداً على أجهزة استخبارات عالمية"

- **"أسهل طريقة عندنا نحن العرب لاغتيال فكرة، اتهامها في اخلاقياتها".**

مسح عادل عينيه بسبابتيه، فهو ما زال مستيقظا منذ صلاة الفجر، ثم تابع بهدوء:

- **"كل فكرة في حدود الورق قابلة للنقاش وللتفنيد أو للتأييد، ما لم تترك موقعها في الذهن وتنزل إلى زناد".**

كان الوقت يمضي على عجل..شعر الصديقان بأنهما أبحرا بعيداً عما كان يجب أن يتحدثا به:

- **"ألا تكفيك عشرين سنة من الغربة يا عادل"؟**

مسح عادل شعره كمن يريد التخلص من بقايا الذكرى:

- **"في البداية تكون الغربة لك وحدك، ثم يشاركك بها زوجتك وأبناؤك، فتصبح العائلة هي الوطن".**

- **"اسمعني يا عادل..أنا لا أثق بأحد كما هي ثقتي بك".**

دفع عادل رأسه الى الامام في حالة إصغاء، أحسّ أن هناك كلاماً مهماً سيقوله صهيب، فهو يستشعر بذلك عادة ما يراه

وقد شبّكَ أصابعه ووضع قبضته على الطاولة، ثم رجَعَ برقبته إلى الوراء كديك المصارعة.

- "أشكرك ولكن ما مناسبة هذا الكلام".(قال عادل وقد استنفر فضوله متذكراً النقاش الذي دار بينهما قبل سنوات حول التمثال).

رد صهيب بجدية:

- "ما رأيك لو تعود من غربتك، وتدير لي بعض شركاتي ومنها مصنع النسيج..ثق بأن دخلك سيكون أفضل مما ستحصل عليه في الخليج".

صمت عادل برهة لينتقي كلمة موحية، وغير جارحة:

- "صديقي صهيب، ثروتك يجب أن تعيدها إلى مطرحها في باطن الأرض"

دُهش صهيب من العبارة وقد وقعت عليه كيمين الطلاق على فتاة في ليلة زفافها:

- "هل تقصد أن ثروتي غير مشروعة"؟..

- "ثروتك يا صهيب حصلتَ عليها بسبب بيعك التاريخ".

شعر صهيب بالكدر من هذا الكلام الذي يسمعه من عادل للمرة الثانية خلال زيارته له إلى حلب، لكنه لم يكن يغضب منه لسببين، أولاهما أنه يحبه كثيرا، فهو رفيق رحلة مديدة من الفقر والثراء، الأمر الآخر، كان صهيب يحتاج إلى من يجلد له ضميره الذي ورطه بهذه الثروة.

سأله عادل:

- **"ماذا فعلت برأس التمثال الأصلي"؟**

- **"بنيت له مكاناً سرياً في قصري، لا يصل إليه أحد سواي، إن متّ مات معي، وهو حيٌّ طالما أنا حي".**

قال عادل وهو ينهي آخر رشفة في فنجان قهوته:

- **"ثمة سؤال يحيرني منذ زمن بعيد، ما الذي استفاده الرسام أسعد من وقفته معك حين جعلك تحصل على رأس التمثال الأصلي، هل ستقول لي مسألة مبدأ كما ادعى؟".**

رد صهيب بلهجة واقعية، وبدا متضايقا بعض الشيء، استهتار عادل بمبادئ صديقه الرسام أسعد:

- **"عندما بعت رأس التمثال المزور بمبلغ خيالي، لم يطلب مني الرجل فرنكاً واحداً، وقمت من تلقاء نفسي بمنحه مبلغاً لا بأس به، وعندما استمر عملي في تزوير الآثار، وكبرت ثروتي، ساعدته في شراء مرسم بالحمدانية ".**

أحس عادل بأنه قسا قليلاً على صهيب فحاول رشّ القليل من ندى عذوبة الكلام بينهما:

- **"اعذرني أنا المخطئ لا المبادئ، يبدو أن ندرة القيم اليوم جعلتني لا أصدق بوجودها".**

ظل صهيب مطرقاً. ولكن عادل لم يشعر بالذنب بقدر ما أحس بالألم على صديقه الذي يعرف عذاباته:

- **"هل ما زلت تعيش أسبوع الفقراء"؟**

رفع صهيب رأسه متنفساً بعمق كمن كان رأسه غاطساً في الماء. شعر بأن هذه الجملة أعادت إليه قليلاً من مشروعية ثروته، أومأ بعلامة الإيجاب.

****

أنفـــاس الشـــارع

كانت المدينة في تلك الليلة من ليالي حزيران تغفو على هدوء مخيف. ثمة أصوات بشرية تعلو في المناطق الشعبية من المدينة. بدت الأرصفة وكأنها تسير إلى هدف غيـــر معلـــوم .. زرافات من البشر تجري وتتقافز بلا اتجاه كأنها ديوك مذبوحة، هتافات مرتبكة تعلو .. وأكفٌ تضرب الهواء الذي كان ســـاكناً فتحركه..

تُطل النسوة عبر نوافذ المساء على سيول صغيرة مـــن الشبان يتجمعون عند ناصية الطريـــق العتيـــق .. كَبَّـــل باعـــة الخضار عرباتهم بسلاسل الحديد ونزلوا إلـــى الـــشارع، إنهـــم يبيعون أي شيء ريثما يحين موسم الفستق الحلبي.. هذا الموسم هو هوية المدينة التي ينتظرها العالم المحيط بحلب بشغف.

كان المذياع العتيق للحـــاج قـــدري بـــائع الـــسحلب، يبث أخبارا متضاربة من محطة إلى أخرى. الحاج قدري رجل في أوائل السبعينات من عمره، يمارس عمله في الصباح فقـــط، بينما يتفرغ لهوايته المحببة في المساء بالجلوس أمام بيته فـــوق

مصطبة إسمنتية مفروشة ببساط من الصوف، وعليه فروة خروف. يستمع تارة إلى الأخبار، وأخرى إلى الأغاني. وحين يشعر بالملل من هذا وذاك، فإنه يغلق المذياع ليغني بنفسه. وعلى الرغم من بلوغه العقد السابع من عمره، إلا أنه يمتلك صوتاً قوياً كأول تدفق الماء من نبع غزير. كان الناس يلتفون حوله في كل مرة يبدأ فيها الغناء، يتركون دكاكينهم ومخابزهم، ويتحلقون حوله للاستماع، فتعلو أصوات انتشاءات طربهم كلما أنهى مقطعاً من الأغنية، أو قداً من القدود الحلبية. كان مرهف الحس يمتلك روحاً شاعرية، حتى وهو ينادي على السحلب، كان صوته نديا كقطرة حنين انسابت من خدٍّ أمٍّ لامست خدَّ ابنها القادم بعد غياب.

للحاج قدري قناعات غريبة في المال، فهو الحلبي الوحيد في هذا الشارع الذي لا يهتم بالمال، كان يقول لمن يسأله عن فرص كثيرة جاءته في حياته ولم يستغلها للثراء بأن المعدة لن تمتلئ بأكثر من حجمها، وبأن الضوء الذي في بيته لن يسطع أكثر!. لذلك فهو يحب العمل في حقول الفستق في مواسم جنيه، ليس لأسباب مادية، بل لأسباب شاعرية. كان شغوفاً بسماع

صوت تفتّح الفستق في الليالي المقمرة. فهو لم يتزوج ولا أحد يعرف قصة بكائه المستمر بعد كل موشح ينتهي من أدائه. كان يعيش لوحده بعد وفاة والديه، ورحيل أخيه الوحيد إلى تركيا، وزواج أخته في حي "السبيل" البعيد عن مسكنه في حي "باب الحديد"، من رجل بخيل يمنعها من زيارة أخيها ولا يدفع لها حتى أجرة المواصلات. بالمناسبة قدري لم يحج، ولا يدري هو نفسه لماذا ينادونه بالحاج، وهي كلمة دارجة وعابرة بين الجميع في هذا الحي الشعبي، ولكنها التصقت بقدري طوال حياته. ربما لأن له لحية بيضاء مدببة، ومشيته فيها رهافة ناسكٍ وهو يحافظ على وقاره حتى عندما يغني، إذ يبقى ساكناً، ولا ينفعل سوى وجهه الذي تحسُّ أنه سينفجر بعد أن تنتفخ عروق رقبته، يتحول لون خديه إلى الأحمر الداكن. قال له أحدهم أنت فيروز المطربين! لم يزعل لأنه يحب فيروز كثيراً، كان عندما يختلي بنفسه يؤدي أغانيها وخصوصاً أغنية "يلبقلك شك الألماس".

في تلك الأمسية من أماسي حزيران، كان مزاج الحاج قدري، صافياً كقمر صنعه العشاق. شذّبَ لحيته قبل خروجه إلى المصطبة، كان يهتم جداً بأناقته، ورغم قساوة مظهره، إلا أن له

قلب عصفور حزين، قالت له صبية جميلة وهي تشير إلى السحلب الذي اشترته منه: إنّ قلبك كهذا.

في تلك الأمسية خرج الحاج قدري إلى المصطبة، متوهج المشاعر، يدندن بموشح"اسق العطاش"، فالتف الناس حوله كعادتهم وهو يصدح محتضناً العود بحنوٍّ أم ترضع ابنها:"اسق العطاش تكرما، فالعقل طاش من الظما، غِثْ اللهفان، وارو الظمآن، واسقنا يا رحمان، من منهل الإحسان، غُربا الأوطان، يا صاحب الورد الذي أحيا الحمى".

ليس هي المرة الأولى التي تتهمر فيها دمعة الحاج قدري وهو يغني، ولكنها المرة الأولى التي تنزل الدمعة بهذه السخونة مجتازة خداً خشناً قبل أن تغوص في اللحية البيضاء.

****

التلويحـــة الأخـــيرة

ركَن صهيب سيارته عند باب الكراج، كانت أصـــوات الناس التي سمعها وهو في طريق عودته إلـــى البيـــت تـــدوي في أذنيه مخلفةً رعباً عظيماً. هرول الخادم إلى السيارة ليقودها إلى الداخل، وقد بدت عليه أيضاً علامات الاضطراب والهلـــع. نظر صهيب إليه مستغرباً:

- **"ما بك"؟**

أجاب الخادم من خلال نافذة السيارة وهو يرجـــع بهـــا إلى الوراء قليلاً:

- **"أخشى أن يصلوا إلى هنا سيدي".**

حاول صهيب أن يتماســـك كـــي لا يكـــشف ارتباكـــه، ثم توقف يصغي باهتمـــام كعادتـــه احتراماً حتـــى لخدمـــه، وتلك عادة أخذها عن السبع:

- **"نحن في الأحياء الغنية لا ينقصنا شيء للتظاهر من أجله .. اطمئن"**

رد الخادم بصوت خفيض كي لا يصل إلى صهيب الذي كان قد تجاوز سور الحديقة باتجاه القصر المضاء كبلورة سحرية:

- "حتى الحرية يا سيدي"؟

بدا للخادم أن صهيب لم يسمع الكلمة، لكنها في الحقيقة استقرت في أذنه صادمةً وغير متوقعة، كقطرة مطر في صيف قائظ ، فلم يستطع النوم.

ليس من عادة زوجته أن تضايقه حين تراه على غير عادته، وقد تكتفي بسؤال واحد، فإن حدثها أنصتت وأبدت رأياً حكيماً، وإن ظل صامتاً، انسحبت بهدوء مغلقة الباب وراءها دون ضجيج. لم تكن زوجته جميلة كما يجب، ولكن حكمتها وذكاءها جعلاها محظية عنده، ورغم ثروته الهائلة إلا انه لم يفكر يوما بالزواج من أخرى: "المال ليس لشراء النساء، بل لتلبية طلباتهن فقط"، قال لها مرة وهو يداعبها في شرفة القصر.

قالت له زوجته وهي ترنو إليه بعين تفيض بحنان أم لا زوجة.

- هل أطفئ الأضواء كي تنام"؟

وعندما لم يرد صهيب، لملمت خَفَرَها الذي رسم مسحةً ورديةً على خديها الأبيضين، وانسحبت.

لم يبق في الغرفة الكبيرة سواه، وتلك الوحشة التي بدأت تسري في جسده. منذ أن مضى على سكنه في هذا القصر أكثر من عشرين عاماً؛ لم يشعر بمثل هذه الوحشة. بدت الغرفة على اتساعها أصغر من غرفته القديمة؛ وأفقر. أحسَّ كما لو أن ستائر المخمل الأرجوانية الثقيلة، والمطرزة بخيوط من الذهب الحقيقي أشدُّ بؤساً من قطعة الكرتون التي كان يغطي بها زجاج نافذته المكسورة.

سار ببطء نحو لوحة ضخمة في الجدار تقبع بجانب الستارة التي ما لبث أن مد يده المرتعشة خلفها ليضغط على زر خفي هناك، فصدر صوت مثل صوت أزيز مثقب طبيب الأسنان، وتوجه بعدها إلى اللوحة التي تحرر قفلها السري بضغطة الزر هذه، ثم فتحها على جانبها الأيمن ليظهر من خلفها باب حديدي صغير عليه أرقام، ضغط على الأزرار بالتوالي: 1974 فانفتح الباب. كان يتفاءل بهذا الرقم السري ويستخدمه

دائماً، لأنه يذكره بأول حجر عقيق عثر عليه في صباه وباعه لتاجر آثار. لكنه لأول مرة يشعر بأن هذا الرقم مخيف بالنسبة له. ساورته أفكار لها نصل حاد: ماذا لو اتسعت دائرة التظاهر، وتمكّن المتظاهرون من محاسبة الفاسدين؟

كان باب الخزانة السرية قد انفرج قليلاً، فبان بداخله رأس التمثال .. وحين أصبح في مواجهته من جديد، عاوده الخوف هادراً بقوة. أحس كما لو أن الرأس يخاطبه:

- "أنت مدين لي بثروتك، وعليك أن ترد لي الجميل بحمايتي"..

رد صهيب على الصدى بلهجة حقيقية مكتنزة بالألم: "ولكنها ثروة فاسدة"..

أجابه الصدى المنبعث وهماً من رأس التمثال: "لو كانت ثروة شريفة لما استوجب الأمر أن تحميني أو تحمي نفسك".

غزا الرعبُ صهيب هذه المرة بشكل أكثر شراسة، وبدأ القلق يساوره: "لقد بعتُ تاريخهم وزورتُه .. فأي مصير ينتظرني لو تداعت أسوار الزمن من حولي".

مدّ يده إلى داخل الخزنة، أخرج الرأس بالرفق نفسه الذي تناوله فيه لحظة اكتشافه له. راحت يداه ترتجفان بقوة

فاهتز الرأس وتأرجح بين الكفين كقطرة مـاء يـداريها ظمـآن يغرف من بئر شحيحة.

كانت المدينة تتوهج مثل قمر خارج للتو من الكـسوف، نظر صهيب من خلف زجاج النافذة الواسـعة، كـان الـصمت المتربص يطوق المكان كأفعى المقابر الخرافية.

وكان صهيب لا يزال ممكساً برأس التمثال بيد مرتجفة، نظر إليه فأحس كما لو أن حدقتيه الحجريتين بقعتان من جمـر متوهج، شعر صهيب بـوهن شـديد وراح يتـصبب عرقـاً.. وهو يمسك رأس التمثال بآخر ما تبقى له من قوة خائرة.

فجأة انفتح باب الغرفة بعد طرقات عاجلـة ومرتبكـة. فزع صهيب وشهق بهلعٍ كمن ابتلع قطعة نقود، فارتجف جـسده كله، وسقط التمثال على الأرضية المرمر الفاصلة بين الـسجاد والحائط، وتناثرت هيبته.

كان الخادم يقف عند الباب مذعوراً:

"لقد وصلوا إلى هنا يا سيدي".

****

الغرفة التي بدا فيها صهيب حياته، صغيرة ومتواضعة جدا. الاحجار هنا تلتصق ببعضها في حنو دافئ وكأنها تعوض عن تباعد البشر. حبال الغسيل المعدنية على الشرفات تستخدمها العصافير والسنونو التي تتوقف فوقها للتفحص زينها من مطر لا ينقطع عن المدينة.

ما زال صهيب يزور غرفته هذه، ويقيم فيها لمدة اسبوع خلال شهر ايلول من كل عام. انه يفعل ذلك حتى بعد ان اصبح احد اهم اثرياء المدينة، تاركا قصره الفاره لسبعة ايام.

قبل عشرين عاما، كان صهيب مدفعا لا شيء يملأ جيوبه سوى قبضة يده التي يدسها دائما.

اما طلبا للدفء، او على سبيل العادة.. لكنه اليوم هو واحد من اهم اعيان المدينة، كلمته في البلد مثل سند التمليك في السجل العقاري. وطلباته قرار.

بعد ثرائه، وضع صهيب لنفسه برنامجا خاصا، اطلق عليه اسم "اسبوع الفقراء". وفيه كان صهيب يعود الى غرفته القديمة، للعيش اسبوعا كاملا، بالمستوى المادي البسيط ذاته الذي كان يعيشه قبل عشرين عاما، وما ان ينقضي "اسبوع الفقراء"، حتى يغلق صهيب الغرفة، ويعود الى قصره، متذكرا بالم "راس الرجل الكبير"؟!